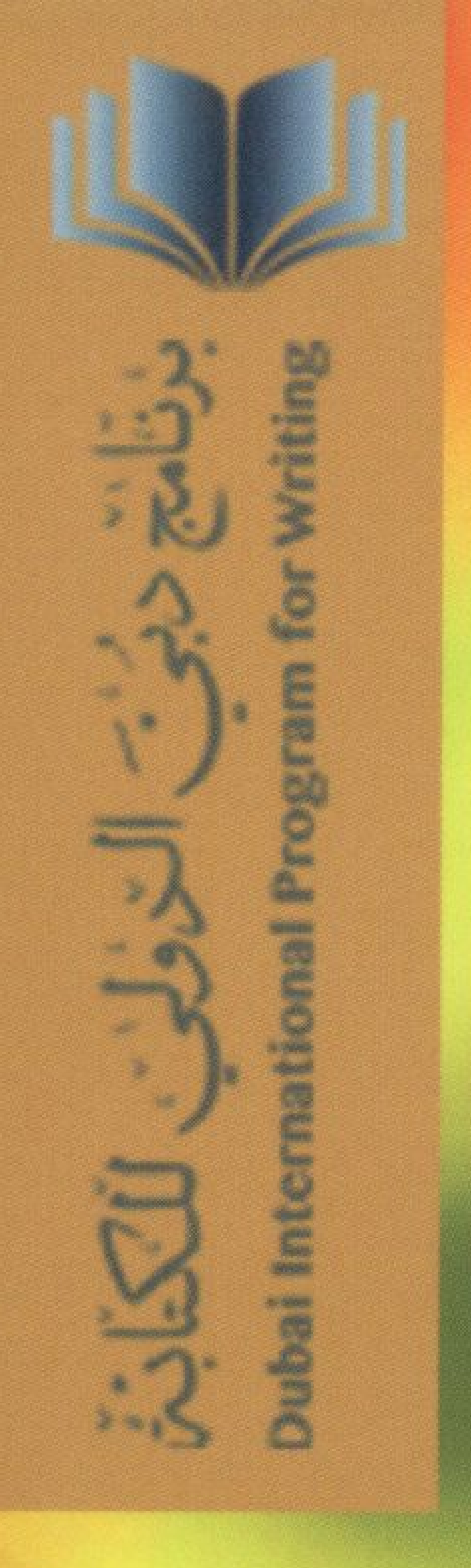


إيمان اليوسف

حارس الشمس

رواية





حارس الشمس

ايمان اليوسف

حارس الشمس

رواية



الكتاب:حارس الشمس **The Guardian of the sun**

المؤلف: ايمان اليوسف **Eman Al Yousuf**

emanalyousuf

eman_alyousuf@

eman_alyousuf@yahoo.com

الناشر: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع

ص: ب: 71474 شارع الشيخ زايد

دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الموزّع: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2015

ISBN: 978-9948-18-889-6 - الإمارات العربية المتحدة

ISBN: 978-614-432-510-0 - لبنان

أنجزت هذه الرواية بإشراف الروائية نجوى
بركات، في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة.

عن برنامج دبي الدولي للكتابة

أطلقت مؤسَّسةُ محمد بن راشد آل مكتوم في عام ٢٠١٣ «برنامج دبي الدولي للكتابة» بهدفِ دعمِ المؤلِّفين الإماراتيين والعرب والوصول بهم الى العالميَّة، وتمثِّل هذه المبادرةُ جزءاً من المبادرات التي تطلقها مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم تباعاً، ومن شأنِها الارتقاءُ بمستوى المجتمعِ العربيِّ فكريّاً وأدبيّاً.

وقد جاءت هذه الرواية ثمرة ورشة التدريب التي امتدت طيلة عامٍ كاملٍ، حيث استفاد روائيون إماراتيون من التدريب على أساليب الكتابة الروائيَّة الصحيحة، وبتقنية احترافيَّة تُمَكِّنُهم من وضعِ نتاجاتِهم موضِعَ التقديرِ بين مصافّ رواياتٍ متقدِّمةٍ.

ويتضمَّن «برنامج دبي الدولي للكتابة» ثلاث مراحل: الأولى تستهدفُ مِئَةً من الشباب الكُتَّاب والمؤلفين من

مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، والثانية تستهدفُ مجموعةً من الكُتَّاب الشَّبابِ من الإخوة العرب المقيمين على أرض الإمارات، وأخيراً ستستهدفُ المرحلةُ الثالثةُ عمومَ المؤلِّفين الشباب من الإخوةِ العربِ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

ولن يقتصرَ دعمُ المؤسَّسةِ على نشرِ المؤلَّفاتِ للأعضاءِ في البرنامجِ، بل يتعدَّاه إلى تقديمِ العونِ اللازمِ للمؤلِّفين؛ ليتجاوزوا النطاقَ المحليَّ وصولاً بهم إلى العالميَّةِ.

جمال بن حويرب

العضو المنتدب

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الإهداء

إلى الآثار العراقية، ما كان موجوداً منها حتى عام فقط، واختفى إلى الأبد...

شكر خاص لثامر ثامر، علاء الطائي، وليد الخالد، طيب بن قدور، وغيرهم ممن قرروا البقاء خلف السطور...

(1)

«بلكي أزرع بذور الشمس، حتى يولد النهار»!

يقول حسين منصور، العراقي الذي يحلم بقطعة أرض صغيرة في وطن لا يذكر أبناءَه حتى بقطعة من قبر. وقف باستقامة نخلة وسط ما كان يوماً أراضٍ زراعية تدرّ من الموصل على العراق كله، الحياة. تجرد، فمال ظله ليعانق الرمل والحصى، صلصال الخَلق الأول ولتولد زهور عباد الشمس من النور، ذهبية، من نسج خيالات السراب، فيما تحلقت حوله كدسة أطفال تدعو له والدته كل فجر بإنجابهم. يختلط الأمر على عقلها المنهك، فتدعو أحياناً لأخيه، أو حتى لواحد من أبنائها الثمانية الذين دفنوا في التراب دون أسماء.

هنا، آخر الأراضي الموصلية الحبلى ببقايا من أمل. في رحمها المُثقل احتمالات الممكن ريانة، جاهزة للقطاف، بعدما تم استثمار المجاور لها بيوتاً وعمارات سكنية، واحتضرت أراضٍ حولها من فرط الجفاف والإهمال.

ـ حجي حسين؟ وحق صاحب الحوت حسيتك راح تجي اليوم.

ـ هلا بيك أبو ذا النون.

ـ بالشرق هناك كان الزيتون . . هنا الشعير والحنطة. . ولغاد أحسن فاكهة.

هز أبو ذا النون رأسه أسفاً وأكمل: والأرض هاي هي على حطة إيدك. بعدك تريدها؟ ما اتقولي شتسوي بيها؟ ثم ضحك عالياً، لاوياً ذراعيه وكفيه.

سار حسين منصور محدباً بعض الشيء، متأخراً بضع خطوات عن الكتف العريضة أمامه. يحدثه أبو ذا النون في كل زيارة وعلى وجبة غداء كريمة من الباجة، عن الأرض. يشوه جسدها بكلماته البسيطة، دون أن يدرك ذلك، يعيد تعريفها بشكل ممسوخ، يعرضها جارية رخيصة ويسعد قلبه ببضع دنانير ثمناً بخساً لها.

حسب أبو ذا النون أنه يعرف الأرض جيداً، مثل بقية ساكنيها ومن رحل عنها أو هاجر إليها، ثم أدرك أن لا قيمة لها. في هذا الزمن، الأرض لا تُشترى ولا يُعول عليها. اليوم، هي أشبه بجثث تدوسُها، ثم ترمق السماء بعينٍ ضالة وقلبٍ يسأل مستفهماً. إنها مقبرة كبيرة نسيت أن طينها اختلط يوماً بنفحة من روح الإله.

"الحمد لله على النعمة»، لمعت لحية أبو ذا النون ببقايا هلامية من مخ وخل، بعد أن مسحها بيمينه، بينما ترحم على شوربة النبي يونس. عاد فتساءل، كما في كل مرة، عن مصير حوش الشوربة في الجامع، ثم أخذ يلوم آل آغا على المناصب الجديدة التي

شغلتهم عن ممارسة مهمة أجدادهم وآبائهم المقدسة. ترحم على بركات شوربة الجريش، ثم عاد ليُقيم الأرض بدنانير زهيدة. حكم على التراب بالموت خنقاً تحت قبضة الطابوق، ليصيب ضيفه الصامت بالغثيان.

وقفت الإهانة لقمة قاسية في حنجرة حسين منصور الذي لم يُفطم من الأرض بعد. سخر أبو ذا النون من حلمه، إنما وعده بالمساعدة مقابل عمولة، قبل أن يودعه.

على بُعد شارع، انتظرت حسين العديد من «الكيات» ليختار أيها ستعيده إلى الجامع. رافقته حفر الطرقات الخطرة، والزحام الذي استقر بينها، على جنبات الشوارع الرملية والإشارات الصامدة وسط الدخان الفحمي. استدعت هيئته الوقورة مع «دشداشة» و«عرقجين» الجامع، توسلات على هيئة صرخة: «حجي»، فقام باختيار أحدهم عشوائيا. يشتكي سائقو «الكيات»، فيبدون وكأنهم يحملون الوجه ذاته والصوت المألوف الغليظ نفسه، حتى الكحة والنحنحة هما هما، فيما تتحول الراء غيناً على اللسان الموصلي، فتوحّده قبل أن تفعل الهموم.

سرح ذهن حجي حسين منصور في حبيبات الكهرمان بين أصابعه. إنها الهدية الأثمن التي حصل عليها والتي، منذ أن أمسكها للمرة الأولى، وهو يطبق عليها بأصابعه، إطباق الغريق على خشبة الخلاص. ينشد الأمان مع كل حبة تسقط في دفء راحته، تك تك، مصدرة ذلك الصوت الذي جعله يحلف لعلاء

وحجي أبو محمد، أنها ترياقه المخلص من آفة التدخين، قبل أن يعود إلى ذلك الإدمان بعد أربع سنوات طوال. ليت الأقدار تدار بهذه السهولة، أو ليتها تكون بهذا الجمال، تشع تحت الشمس وتلمع واضحة، كحبات مطر الذهب وقد جمد.

أخرج حسين من جيبه علبة السجائر. ما زالت اللقمة الثقيلة عالقة في جوفه، منقوعة بالسموم التي تقيّأها أبو ذا النون. فتح العلبة ليجد لفافة بيضاء وحيدة تستلقي بهدوء في جوفها، كان قد أعدها بعناية هذا الصباح. تردد قليلاً، ثم أعاد العلبة إلى جيبه بعد أن قرر أنه سيؤجل احتراقها بضع دقائق، إلى حين لقائه بعلاء. وضع يده على صدره، شاعراً بنار من أثر الدخان وبنار أكبر لا يطفئها إلا الدخان.

(2)

بين فكي سورين حجريين، توالت درجات الجامع بخضوع. كجناحي باشق، انفردت على جانبيها مصطبات حجرية تطل من بينها نخلات وأصص مزروعة بشكل أنيق، تستقبل الزائر، كما شرفات جنائن سنحاريب المعلقة.

تجولت عينا حسين منصور كما دائماً، بين كل هذه الأجساد الهائمة، داراتا في محجريهما كراقص تنورة، فتباطأت خطواته حتى بدأت الجموع تتجاوزه. كل هذه الأرواح تعرج التل وقد ساقتهم الهموم والأحزان، أو الأماني التي مازالت تنتظر، فتصعد الأجساد متخلية عن أحمالها شيئاً فشيئاً. مائة وثمانون درجة تقطع تل التوبة، لترتفع بالزائر إلى بوابة جامع النبي يونس الكبيرة، حيث كُتب بخط أنيق «وإن يونس لمن المرسلين». مائة وثمانون مرة سينبض القلب وتنثني ركبتا العاصي، قبل أن يخرج من آثامه البشرية.

اعتلى حسين منصور الدرجات بخطوات شبه لاهثة. تغسله العتبات المفروشة على كفي الجامع الكريمتين كل أسبوع، أو ربما أكثر، من جرم وخطيئة لم يرتكبهما يوماً. حدثته نفسه، أنه يكاد

يكون قديساً، بعد كل هذه الطقوس، ثم استعجل بالاستغفار وطرد همسات الشياطين من رأسه.

«وين العباية؟»، التفتت سيدة وقور تقف خلفها امرأة أصغر سناً على إحدى ذراعيها طفلة اتكأت بقدمها الصغيرة على بطنها البارزة، فيما تمسكت أخرى بطرف عباءة والدتها وهي تسحبها، شاكية بصوت ملائكي ناعم، «ماما تعبت». تقدمت السيدة الوقور نحو حسين منصور وأخرجت العباءة من كيس بلاستيكي. رمق منصور بطن السيدة الواقفة على بُعد عتبتين منهما، ومن خلفها عدة نخلات شامخة وبعض شجيرات الورد والحشائش، فبادلته النظر بكثير من الأمل. بدت بائسة وثقيلة جداً، وثمة ما يجعلها شبيهة بنعجة تساق للذبح. كم تشبه في هلعها دجلة يوم أحضرها بعباءة على رأسها، وأخرى بين ذراعيها. كانت ترتجف. يدعو وهي تؤمن من خلفه. صعدا يومها درجات التل، ثم إلى الجامع، فالمئذنة العالية. هناك، ذُهلت دجلة من منظر المدينة التي بدت بيوتها وناسها صغاراً، كأن لا هموم لهم ولا قصص تُحكى. دمى ضئيلة ذات ضوضاء بأزيز تافه. قرأ حسين منصور بضع آيات من القرآن والكثير من الأدعية، وهي لا تزال تؤمِّن من خلفه. لم يكن متأكداً حتى من أنها تعي ما يلهج به لسانها، تتحرك شفتاها ويعتصر قلبها وترتعش كلها في مناجاة خاصة مع الرب. حديث حزنِ أُم قبل أن تكون أماً. أشار لها، فألقت بعباءتها التي تحملها، تعلقاً بقطعة القماش السوداء، وهي تسقط مترنحة أرضاً. «هذا ولد؟»

سألت دجلة بانفعال، ثم غطت فمها بيمينها. عانقته سعيدة، «راح أجيب ولد. راح أجيب ولد»، قالت قافزة، فاقترب ومسح دموعها عن وجنتيها. . .

مسح دمعة في زاوية عينه، ثم أشار إلى السيدة، موضحاً بعد أن فهم منها الأمر: لِتُلْقِ زوجة ابنكِ الحامل بعباءتها من مئذنة الجامع، فإن سقطت بجانب صبي أو رجل من المارة، فمولودها بإذن الله ولد، وإن كانت فتاة أو سيدة، فالحمل ببنت. «لا، بإذن الله ولد، وننذر نسميه يونس. . . هالمرة ولد بإذن الله. ولد أكيد أو يطلقها ابني».

كان حسين قد نسي أمر علاء، فإذا به يلتف عائداً وهو يهبط الدرجات بسرعة. مر بمحاذاة الرصيف، ليتجه إلى نقطة التفتيش القريبة، حين توقفت سيارة أجرة بجانبه فجأة.

- حجي حسين! رفع رجل أربعيني جزءاً من رأسه عبر نافذة السيارة نصف المفتوحة.

- ياسين؟ خير؟ سأل وقد امتدت يد شقيقه إلى باب المقعد الذي بجواره تفتحها بصعوبة. اركب، أمك عتموت وتريد تشوفك.

- ايش صار بالضبط؟ سأل قلقاً حسين وقد تحركت السيارة مبتعدة بهما على عجل.

التفت إليه ياسين، خالي الوجه من أي تعبير، ما عدا تقوساً

بسيطاً في حاجبيه. بقيت شفتاه مطبقتين حائرتين، كيف له أن يعرف؟

يسمح زحام شوارع الموصل بتجاذب أطراف الحديث التي لا يمكن الهمس بها في منزل شقيقه. قبل وبعد زيارة كل يوم جمعة، وفي سيارة أجرة ياسين، من الجامع إلى حيث تسكن الأسرة الصغيرة وبالعكس، يبدو الشقيقان أكثر وضوحاً وقرباً.

نفث المكيف الساخن في أنفيهما هواءً أكثر نقاءً من وحدة التبريد المنزلية، فبدا الهدوء مسالماً، كشخص بريء وراء قناع مخادع. قطع الصمت صوت قناة القرآن فجأة. هل وأد ياسين كلاماً لم يكن مقدّراً له أن يقال؟ اقتربت البوابة الحديدية المزخرفة ببطء، حتى توقفت السيارة. تحركت جوانب ستارة دانتيل مصفرة زهراتها المتفتحة أبداً، في نافذة صغيرة، ثم ذاب بين طياتها ظل ضئيل، في الوقت الذي ظهر وجه نجلاء المحبب خلف كسرة بين دفتي الباب. ابتسمت نجلاء، ثم تتبعت عيناها كفي عمها بحثاً عن بعض من حلوى من السما واللقم، أو السجقات، قبل أن تتذكر أنه ليس يوم جمعة.

ركضت تعانقه. «وين إخوتك منصور ومصطفى؟ سألها حسين. «راحوا لشارع النجفي يشترون كتباً»، أجابت وهي تسبقه إلى حيث حجرة جدتها.

(3)

كان فيهما شيء غريب، عينيه تعني. هي التي رأت هذا الزائر الملثم في عيني ثمانيتهم من قبل. هي التي تعرفه جيداً، وحدها التي كانت تستيقظ كل ليلة، لتراه يخطفهم من بين يديها وحجرها، بدون استئذان. يسلبها مضغة من قلبها، دون أثر أو صوت، حتى نهشه كله، ولم يبقَ لها سوى قطعة تبقيها على قيد الحياة. بعد أن يقضي ملك الموت مهمته، يبقى الطفل نائماً بسلام، إنما دون أن يرتفع صدره الصغير وينخفض. لن يصرخ مجدداً، لن يرضع من ثديها أبداً، وسيبقى جفناه مرخيين.

يؤذن الفجر، ثماني مرات، على جثة لرضيعها في حجرها. لم الفجر دائماً؟ يستيقظ زوجها ليتوضأ ولا يلتفت إلى الجسد المرتعش بجواره. تنحني بأضلاعها لتدفئ الرضيع. «ما أريد يبرد ابني»، تبكيه، فيعود يربت على كتفها، «كتبة الله .. اللهم لا اعتراض».

تواسيها النسوة أمام فناجين القهوة المُرة، قائلات بأنها ما زالت صغيرة، ولا يزال في رحمها مكان لغيره. كن يحسدنها على صبر زوجها إذ لم يحظ أي من أبنائها بمدة أطول من سبعة شهور. أما

بالنسبة لها وحدها، فتطول عاما وأربعة أشهر. كانت تتساءل دائماً، «لِمَ لا تُحتسب أشهر الولادة التسع من أعمار الأطفال»؟ وتُقسم أنهم كانوا أحياء في أحشائها، تسعة أشهر أو سبعة أحياناً، يمارسون ما يظهره الأحياء من أكل ونومٍ يحدثونها ويستمعون إلى نجواها، تشعر بأنفاسهم في رحمها حيث تكبر ملامحهم وأطرافهم. تسعة أشهر يدق قلبهم في جوفها، ويعتبرهم العالم أمواتاً؟ عجيب!

يوم وُلِد حسين، رأت في عينيه التماعة الموت ذاتها. لمحت الرعب فيهما للمرة التاسعة، فأبت أن ترضعه ليلاً. كان يقضي لياليه جائعاً يبكي، وحيداً، بعيداً عن حجرها. مع الوقت، كبر حسين. يبدو أن حيلتها نجحت، وأن بكاءه طرد زائر الفجر الملثم. إلا أن التماعة الموت بقيت في عينيه. كان فيهما شيء غريب يعصر فؤادها، كلما التقت نظراتهما.

اقترب حسين من سريرها، فاستيقظت وتعانقا. همست وكأنها تستأذنه، «يمه، راح أموت». مسحت بأصابعها على جبهته، ثم حاجبيه ووجنتيه، فأنفه وشفتيه، وأخيراً ذقنه. تساءل، هل كانت يا ترى تحفظه؟ هل تخشى نسيان ملامحه، كما تنسى كل شيء آخر؟

ابتسمت قائلة ببطء، «هالمرة راح أموت قبل أولادي». بدت إلى حسين في سعادة لم يسبق له أن عرفها في ملامحها قبل اليوم. في الواقع، كانت تسعد كل مرة تشعر فيها باقتراب الزائر، فهي

تريده لها قبل حسين أو ياسين، لا بل قبل حسين. كانت تردد دائماً، «حسين لا ولد له ولا حظ»، حتى أصبحت حقيقة مسلما بها. «هل يُعد أحدنا من الأحياء، ولا عقب له؟». لطالما أجهدها التفكير واحتشاد الأسئلة التي لم يعتد عليها عقلها الضبابي منذ فترة، فاسترخت جبهتها وارتخى جفناها المتورمان.

ها هي والدته تذبل أمامه، تجف وتتجعد كورقة خريف. تبدو اليوم أكثر ضآلة، كأن جسدها يتقزم. هل يلهو بها الموت؟ هل يعافها؟ لم يستطع منع نفسه من أن يتخيل حجم التابوت الذي سيشغله هذا الهيكل الهزيل، في وقت قريب. تخيل نعشاً أقرب في اتساعه إلى حجم مهد رضيع. ستسعد روحها عندئذ ولا بد، إذ ستبدو كأحد أطفالها الذين زفوا إلى قبورهم فجراً. احتضنت كفاه أصابعها المخضبة أطرافها بخطوط حناء قانية متعرجة. تعاركت الأصوات المختلفة من ورائه، كأن أحداث العالم تحتشد، تنقبض وتنبسط كلها خارج هذه الغرفة. لمح في زوايا الجدران زغبا أبيض ناعما، فعلم أنها لا تزال تعتقد مثل كثير من شيوخ الموصل، بأن إزالة بيوت العنكبوت وتنظيف زوايا الغرف، فأل سيئ. ألم تحمِ العنكبوتُ في الغار، الرسولَ من خطر قريش يوم هجرته؟

جلس حسين على طرف السرير الضيق يراقب حركة صدرها، ويحاول تمييز الأصوات الكثيرة المتداخلة التي تأتيه من مختلف حجرات المنزل وممراته، وتجيء ممزوجة بروائح مواد تنظيف الأرضيات ومساحيق الغسيل وقطع المفارش الجديدة الملفوفة

بعناية مع حبيبات النفتالين في الأدراج الخشبية، معجونة بروائح الطبيخ الذي شارف على النضوج.

أدرك الآن، كما في كل يوم جمعة، في بيت أخيه ياسين، أهمية ما لا يملك. رآه مشوهاً كالكلمات البذيئة التي تُخدش بها جدران الأرصفة في زوايا الموصل، حيث إن وضوحه أبشع ما فيه. ترعبه فزاعة الرجل الوحيد التي يشعر بها، كلما تمسك بالبقاء ساعة إضافية بينهم بعد الغداء، أو كلما بكر بزيارتهم بعد صلاة الجمعة.

يستمر في إخبار الجميع أن في غرفة الجامع حياة تكفيه، دنيا مختلفة غير تلك التي تم استئصاله منها كالأعشاب الضارة التي كان يقتلع جذورها مع والده. تزوج صغيراً جداً، واختلط بسدنة الجامع مبكراً جداً، هو الذي لا يعرف معنى أن يكتفي المرء من النوم منذ زمن. تُطلق البنادق أصواتها الكريهة بقرب أذنيه كل ليلة، تنتشر روائح الجثث العفنة بمحاذاة منخاريه، وتسكنه صور عالقة منذ الحرب العراقية الإيرانية.

تذكر أنه لا يزال يحمل السيجارة الملفوفة الأخيرة التي فوتت على نفسها وعليه حديث علاء عند نقطة السيطرة. لا يهم، فالسجائر جُعلت لتحترق، لتنهش خلايا جسده، فيتضوعان عطراً من نار. النار تطلب النار. خرج مسرعاً عبر الممر، قاصداً حديقة المنزل.

«حجي حسين! تعال فضها الله يوفقك». جاء صوت سحر من

داخل المطبخ. «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أُخرج حسين سبحة الكهرمان، فعلا صوت حباتها التي عادت تسقط بين أصابعه من جديد. تك . . تك . . تك.

رفع ياسين طرف ستارة هي عبارة عن شرشف سرير قديم، كان قد تم تثبيته أمام باب المطبخ الموارب، فأحنى حسين رأسه ودخل، ثم أُغلق الباب خلفه. قربت نجلاء رأسها الصغير بهدوء شديد، لتلصق أذنها بالباب. «سحر ما تريدني أشتغل عالتاكسي بعد»، بدأ ياسين. كان يوجه الحديث إلى أخيه حسين، متجاهلا وجود سحر قدر الإمكان. تصرف كما لو لو تكن أمامه، حتى في اختياره لكلماته. «التاكسي ما عيجيب همو. حتى فلوس للأنبوبة ما عدنا»، ارتفع صوتها بانفعال. كانت هي الأخرى تتحدث إلى حسين وتتجاهل ياسين. تحرك رأس حسين وعيناه بينهما يمنة ويسرة، ولم يخرج عن صمته.

- هسه صارت أنبوبة أكسجين الحجية هي المشكلة؟

- ومصاريف غسيل الكلى؟ والخطر؟ كل يوم رايح لبغداد بهالطريق اللي كلو حفر وتفجيرات، على ايش؟

- بهالظروف، شنو تقترحين أشتغل؟ دكتوورر؟ لو تحبين جنابك أسرق؟

- حتى العملية راح تصير وماكو فلوس؟ علا صوت سحر مجدداً واحمرت وجنتاها وتعرقت جبهتها.

ـ اشنو، أكو متبرع للكلى؟» سأل حسين مصدوماً.

ـ إي، المستشفى بلّغنا البارحة. يريدون دفعة أولية حتى يعملون العملية، رد ياسين.

بدأت الكلمات تتداخل، تتشابك مع كلمات الجمعة الماضية، ثم جمعة الشهر الماضي والتي قبله. ضحك حسين، «سيصعب تمشيطها هذه الشعثاء!» وكعادتهما، كان الشجار بعيداً عن صلب المشكلة، متشبثاً بالتافه السطحي من الأمور. تضاءلت كلمات حسين، تقهقرت مستسلمة أمام حصون عبارات ياسين وسحر، وأخبار حوادث الموت على طريق بغداد - الموصل، وشرائح أدوية والدته والإبر وأنبوبة الأكسجين، ووجوه أبناء أخيه الباسمة. دوامة سخيفة تحيره الى اليوم، بين أساسيات الحياة الصلفة، وبين حلم. فإن هو اختار الأولى، تجرد من إنسانيته وعاش كالهوام ليرعى فقط، وإن اختار الثاني، فقد إنسانيته أيضاً وحيوات من يحب. محتالة كبيرة أنتِ أيتها الحياة. أنانية أنتِ لتغاري من حلم، واليوم تأتين بأعتى دفاعاتك. ها قد وُجد المتبرع الملائم، فيما تصر النقود على الغياب.

خرج حسين تاركاً بقية الحديث المكدس أكواماً من ضباب خانق. أسرع إلى حيث يتنفس النار، يسحبها إلى جوفه، ثم يخرجها رماداً بارداً. لا يعرف حسين منصور الكره. لا يملك أن يحمل شيئاً على محمل الحقد، ولا حتى الحياة. لكن، تبقى حسرة السر المكبوت في صدره. في صغره، علمه والده كيف

تحيا زهور عباد الشمس عندما تدفن بذورها في الأرض، فأدرك أنه، إن دفن حلمه في صدره، سينبت من جديد، أزهاراً صفراء زاهية تتبع الشمس. مع الوقت، صارت الدنانير التي يجمعها، سراً ثقيلاً، أشبه بالخيانة، سماً بطيئاً يعده بموت شهي ولا يفي. منع نفسه بصعوبة من إخبار ياسين وسحر بالأمر. تخيل في بُعدٍ ما، أنه يهديهما المبلغ، فتبتسم الدموع على وجنتيهما، تختفي أصواتهما والمشاكل فجأة، وتختفي كذلك ابتسامته والأرض إلى الأبد، فيعود ذلك الفتى بالهيبة التي صنعتها له «الدشداشة» و«العرقجين» على بوابة الجامع.

(4)

التغيير مفهوم عصيّ على الجامع. منذ آخر تعديل له في بداية تسعينيات القرن الماضي، وجامع النبي يونس للناظرين والزائرين، ثابت. ملجأ يجود بدفئه على الجميع، يحفظون حجراته وممراته بأبسط تفاصيلها، حتى ألواح قصائد عثمان الحيائي وعبدالله باش العمري التي أزيلت من قِبل النظام السابق، لا تزال تفترش مخازن الجامع بالوضعية ذاتها، طوال الثمانية عشر عاماً التي مضت. أما بالنسبة لمن يسكنه من حرس ومؤذن وإمام خطيب وحتى من عمال الصيانة والنظافة، فهو كيان ضخم. رحم أخرى ولجت بهم إلى عالمهم هذا. حوت آخر ابتلعهم ليجدوا السكينة في جوفه.

على غير العادة، اقترب حسين منصور على عجل، اعتلى ظله الدرجات ثم البوابة، مهرولاً. عند المدخل، رآه جابر الذي يتشاطر وإياه الحراسة والعناية باحتياجات الجامع، بعد أن تشاطر هو ودجلة رحماً واحدة. ولأنه الوحيد الذي لا يسكن البيوت الطينية الملحقة بالجامع، بالإضافة إلى وجود زوجة وأبناء في كنفه، تولى جابر مهمة العمل نهاراً، وترك لحسين الليالي الطويلة التي غالباً لا تأتي مقمرة.

«السلام عليكم حجي حسين. زين اللي شفتك قبل لا أمشي»، جاء صوت جابر ردا على سيل متواصل مخيف من السعال الحاد. «مو نصحتك تبطل عادة التدخين؟»، أكمل ممازحاً قبل أن يستعجل المغادرة. بعد كل هذه السنوات، لا تزال علاقتهما متوترة بعد أن فقدت شكلها منذ ذلك اليوم، لتضيع إلى الأبد.

«هلا باللي شرفنا عند الأجانب»، مازحه الشيخ أبو محمد، فابتسم حسين. «خير ابني، وينك اليوم؟»، ولم ينتظر كعادته الإجابة. كان يكفيه أن يعلم أن حسين والبقية بخير، هو الذي صار أباً لهم منذ استلامه إمامة الجامع من بعد أبيه الشيخ بهاء الدين رحمه الله. «قوم ابني نصلي المغرب»، ربت الشيخ أبو محمد على كتف حسين منصور. كان الحجي أبو أميرة قد اعتلى المئذنة، فارتفع النداء العذب، «الله أكبر . . الله أكبر».

لطالما أثار الشيخ أبو محمد فضولهم، بل واستغرابهم، جميعا دون استثناء، الحارسان حسين وجابر، والمؤذن الحجي أبو أميرة، وحتى مسؤولي النظافة والصيانة رافع وإحسان. وكأن شيئاً من روح المكان المقدسة قد استقرت في عروقه، فكان، من دون الاستعانة بساعة، يحدد وبدقة أوقات الصلاة، كما كان يدرك أغلب ما يدور حوله. الأهم من كل هذا وذاك بالنسبة لحسين منصور، هو منظر الشيخ وهو بهذه السن والهيبة، وقد اصطحبه إلى كافيه الإنترنت لمشاهدة الفيلم الوثائقي الذي صورته بي بي سي عن الموصل، ورأى الفخر يلمع في عينيه. تحدث يومها حسين أمام طاقم القناة

والمذيع الأجنبي، لمدة عشرين دقيقة أو يزيد عند التصوير، وبعد المونتاج لثلاث دقائق، عن تاريخ ومكانة جامع النبي يونس، كونه أحد أهم معالم الموصل. تبدل بعدها حسين منصور في نظر الجميع، حتى أن بعضهم صار يزور الجامع ويسأل عن رجل البي بي سي. تبدل بعدها أيضاً الشيخ أبو محمد في نظر حسين منصور، وأصبح المفردة المرادفة لكلمة الأب في قاموسه.

(5)

ما الذي يعرفه زوار الجامع في النهار، عن زواره في الليل؟ ما يعرفه الجميع حقاً عن حسين منصور، أي لا شيء.

استوطنت هذه الأسئلة ومثيلاتها ضمير حسين، إذ، «هل من العدل أن يتساوى الزائر الذي رحل عنه النوم واستوطنته الهموم فزرعت في صدره أشواكاً، مع من استجار بنور الشمس وزحام الأرواح حول القبر»؟ يكاد يجزم أن دعوات الليل هي وحدها التي تمسّ عرش الله، وحده السحر الأخرس الذي تجره أذيال الظلام المهيبة دون أن يتعثر بها، يقبض على الأمنيات فيقلبها بكف ميداس إلى حقيقة.

حسين منصور الذي امتعض في البداية لجعل نوبات الحراسة الليلية من نصيبه حتى دون سؤاله عن رأيه، عقد هدنة مع الليل بعد أن خالط نجماته. تبدلت حسرة الأسرة التي لم تكن له يوماً قط، ببهجة سرية الظلام، واستحال الدفء المحبب الذي يراه لدى الآخرين في رسم البيوت وأهلها، إلى نسمات باردة يصحبها له المساء. أرخى رأسه الثقيل، فلاحت له أذرع النخلات السوداء تهدهد السهر. بدا الجامع مزيناً بالأنوار الصفراء وتلك الخطوط

المضيئة الخضراء التي تحدده وتفصله عن التل بالنسبة لأهل الموصل. في الليالي التي ينساها القمر، يسدل حسين جفنيه على كل شيء آخر، إلاهُ. أهكذا يجن الظلام في جوف الحوت؟ وهل كانت أربعين ليلة كما يدعون؟ يحب حسين العدل الذي يفرضه السواد على كل شيء، ففي قبضته الكل سواسية، وكل ما تحت الظلام، ظلام.

تناهى إليه صوت خطوات قادمة من بعيد بدا أنها تسير في اتجاهه، ثم تراءى له طيف يرتدي قبعة وحذاء عسكريين. «علاء؟»، ابتسم ونهض تاركاً كرسيه البلاستيكي. «عبالك تنهزم مني؟» ضحك علاء وهو يقرب كرسياً بلاستيكياً ليجلس. أشعل كل منهما سيجارة. كان من عادتهما أن تكون الأولى قربانا للصمت، والثانية بوحا، ها هما قد أشعلا الثالثة ولم تبدُ على أي منهما الرغبة بالكلام.

كان علاء في جلسته مواجهاً لبوابة الجامع. اعتادت عيناه على الظلام بعد فترة، إلا أنه لم يتمكن من رؤية الغرفة الداخلية والممرات التي يراها في النهار. أغمض عينيه واستقام ظهره بشكل مبالغ فيه حتى آلمه جنباه. فعلاء الذي قضى جل عمره في الزي العسكري، يحب كما يفعل جندي، ويصلي للعذراء والمسيح كل أحد، بطريقة عسكرية أيضاً. أدى التحية باللغة التي يفهم، رفع يده اليمنى بجانب رأسه قليلاً، تباطأت أنفاسه، فشعر بدفقات باردة تملأ رئتيه ثم معدته، لفظها مع زفرات وذكريات لم تعد ملكه،

لنهاد التي بقيت وديعة فقط في الأشهر الأولى من ارتباطهما، والأولاد الذين استحالوا صوراً على الثلاجة في منزل والديه. انفصل علاء عن زوجته، وهو يملك ورقة تثبت ذلك، وورقة طلاق تذكره بأنه ذلك المسيحي الملتزم الذي لا يؤمن بالانفصال، والموصلي الذي سيبقى على يقين أنه مطلّق على الورق، ومتزوج على فرض، ووحيد على وجه الأرض.

«اشنو ما اتأخرت عالبيت؟»، سأل حسين منصور وقد ضاق لأول مرة بصحبة علاء. «شلونها الأرض؟»، قال علاء معتدلا في جلسته. التفت إليه حسين، ثم أشعل السيجارة الرابعة. «بعد باقي كثير عالمبلغ المطلوب؟» سأل علاء، «تعيش وي نذل ومنافق لو وي جثة حي؟» رد حسين. «شلون . . ما افتهمتك؟ أبو علي، أشو صرت تحكي بالألغاز؟». «متبرع الكلى جاهز وماكو فلوس»، أجاب حسين. «أهلك ما يعرفون بموضوع المبلغ؟»، أردف علاء، فهز حسين رأسه نافياً.

ـ قررت ما تنطيهم يعني؟

ـ وشلون أعيش وي هذا اللي راح يطلعلي كل يوم بالمراية؟

ـ إي . . لعد راح تنطيهم؟

ـ إذا راحت الأرض، اشيبقالي؟

ـ أتمنى لو أقدر أساعدك. . تدري اشقد غالي علي، بس موضوع الـ. . .

ـ ما اتقصر، أعرف الحال. الله يكون بالعون.

عاد الصمت مدة حياة سيجارة أخرى، وانطفأ برحيلها. بقي حسين منصور وحيداً في ما تبقى من تلك الليلة، يقلب قطع الكهرمان بين أصابعه، ويسأل «تعيش وي نذل ومنافق، لو وي جثة حي؟».

(6)

«وعلى عكسكِ يا شمس، حزني لا يغيب، وفية هي همومي التي لم تتركني قط وحيداً»، تمتم حسين، بينما أخذ يزرع غرفته الصغيرة جيئة وذهاباً. لم تكن نهاراته سوى ساعات قصيرة من العصر تتهيأ للرحيل، ويستعجل خلالها إنهاء أي زيارة ضرورية إلى السوق، أو أي عمل معلّق يلح عليه منذ أسابيع، أو حتى شهور. يبدأ يومه بمشهد غروب الشمس، لينتهي في ساعة شروقها، ويعيش حسين على الأمل، فيمني نفسه ويوسع أحلامه التي صارت هي الآمرة الناهية في بحبوحة عقله وفؤاده، حتى غاب عنه الواقع تماماً.

على غير عادة الأيام – ما عدا يوم الجمعة – المتشابهة لدرجة مخيفة، جاء اليوم مختلفاً، إذ قطع جابر عليه تفكيره بينما كان يقابل خياراته بين التخلي عن حلمه أو عن واجبه تجاه والدته وأسرته، وقد شعر أنه في وضع يشبه الأرجوحة، كتلك التي صنعها ياسين في حديقة منزله، هدية لنجلاء في عيدها الخامس. كان هذا هو أول اجتماع لهما، منذ ما يزيد على عشر سنوات. لقد تجرأ جابر أخيراً على زيارة حسين في غرفته. وكلما أطال حسين

النظر إلى جابر، تمثلت له دجلة، الزوجة التي لم ترد على لسانه أو تفكيره منذ الحادث، والتي يتجنب جابر ذكرها، كما تعوّد تحاشي حسين حتى اليوم.

اختار جابر الوقوف في باب الغرفة، ضيفاً عابراً، بعد أن كان لحسين قريباً، فسدّ بجسده الضخم المنافذ على الشمس، حتى بدا ظلا داكنا وصوتا يخبر أن ابنته مروة ستتزوج يوم غد، وأنها مصرة على حضور عمها حسين، لتشتم نسيماً من عمتها دجلة. بقي حسين أخرس، فأدرك أنهم لم ينتظروها قط كما فعل هو. كان من الأسهل، بعد أشهر من البحث والانتظار، أن يُعجلوا بنهاية الحكاية، فيُسلموا مصير دجلة المشوش إلى الموت طواعية، وإن كان كل ذلك مجرد كذبة. لم تكن الفكرة هجينة بالنسبة إليهم، بعد أن عايشوا مشاهد مشابهة تكررت أيام الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج، مدركين أن قبوراً كثيرة هي حفر خالية أُوجدت كنقطة نهاية اضطرارية وملجأ يقصده الأهل للبكاء على من فقدوا، أيام الأعياد أو كلما اشتد بهم الحنين. وإلا، فأين سيعلقون باقات الزهور وينثرون الماء المخلوط بندى الورد؟

كانت دجلة شديدة التعلق بمروة في طفولتها المرحة الشقية. هل تُرى أصبحت تشبهها؟ ها هي دجلة تعود كشبح محبب لتشاركه غرفته هذا النهار، وتستطيع، كما كانت تفعل دوماً، أن تخلصه من كل الأفكار التي تصطف في عقله، لتأسره وتربكه. ربما لو كانت هنا اليوم، لكان قرار الأرض عليه أسهل، ولما كان وعد جابر بأصعب ما وعد به أحداً قط.

ترك جابر بطاقتين على طاولة قريبة، قبل أن يرحل، تاركاً الصمت ذاته الذي سبق ظهوره عند عتبة الباب، وعاصفة من الأفكار في رأس حسين الذي أدرك أن ذهابه إلى عرس مروة ابنة جابر، هو محاولة لاسترجاع دجلة، بالقدر الذي كان خطوة للنسيان.

استمر حسين في الطواف حول سريره. كلما تقدمت به الدقائق، دون أن يعاود ياسين الاتصال به، ازداد قلقه وإن كان قد نسيه لبعض الوقت. قطع هذه الدائرة المفرغة بخروجه إلى حيث الممرات السكنية. كانت الدور خالية إلا من النسوة والأطفال، فعاد أدراجه، أغلق الباب، وجلس بجانب هاتفه ينتظر. لم تكن الصدمة التي تركها جابر قد فارقته بعد، فقام يحضر بعض الشاي ويضيف السكر، مرددا «عرس مروة». ها هي دجلة تعود إليه، كما توقع دوماً، وإنما بطريقة القدر الخاصة. هل يعقل أن تتزوج يوم غد تلك الفتاة الصغيرة التي لم تكن تكف عن القفز للحظة، والتي كانت تجرح نفسها باستمرار؟ كم تمنى أن تكون نجلاء بمثل نشاطها.

عاود فتح النافذة، فدخل الهواء البارد متلصصاً وملأ الحجرة، محملاً بصيحات لهو الأطفال. أراد حسين لهذا الضجيج أن يخرس الصرخات في عقله المُتعب، وللبرودة أن تقرصه عله يصاب ببعض الخدر اللذيذ.

ـ ياسين؟ أخيراً. وينك ما اتجاوب؟

ـ ستة اتصالات حجي، خوفتني. خير؟

ـ اشلونها الوالدة؟ أحس حسين بالحرج من ذكر السبب الحقيقي لمكالماته.

ـ على حالها. اسمع، اني راح اطلب مبلغ العملية من أبو ثامر.

ـ أبو ثامر؟ حاول حسين تذكره جاهداً.

ـ عميد كلية الإعلام اللي أوصل له بضاعة لبغداد. ما تذكره؟ طلب مني أجيب جماعة أهله من المطار باجر، وراح أقول له بعدها.

دون أن يشارك أخاه ياسين أياً من أفكاره البكماء، أنهى المكالمة على عجل، متسائلا إن كان مهماً أن يتذكره؟ أليس مجرد اسم يأتي معه حل القضية؟ ليبقَ اسم أبو ثامر بالنسبة لحسين مجرد حروف، لا أكثر، وعدا بتخليصه من حمله الثقيل، ومفتاحا يعيد إليه أرضه وماله. لن يسأل أخاه عن السبب الذي قد يدفع هذا العميد لمساعدة ياسين بهكذا مبلغ، ولن يشغل نفسه بكيفية تسديده من قبله.

عاد حسين إلى النافذة التي تعج بسعادة الأطفال. إلى جانبه، وقف ضمير يتألم وأنانية تطل برأسها من وهم، وبطاقتي عرس مُرتقب.

(7)

استغرب ياسين أنه، وحتى الآن، لم يجرؤ على مفاتحة أبو ثامر بطلبه. ربما، لأن المبررات التي أبعدته طوال ذلك النهار، هي ذاتها التي تعمل لصالح الظروف التي جمعته بالرجل. كان يقود سيارته بحذر في شوارع الموصل، بينما جلس أبو ثامر إلى جواره، وهو يختلس النظر كل حين، إلى ابن أخيه وزوجته. لقد بدا واضحاً على الشاب أنه لم يتنفس هواء العراق قبل هذا المساء، وأنه لم يسبق أن داس التراب الذي صُنع من طينه. الملامح قد تعكس شخصاً لم يكنه، واللهجة العرجاء التي تتكئ على ألفاظ من الإنجليزية تشي بذلك. أما الفتاة، فلم يَبدُ أن في عروقها السمراء صلة بمجرى الفراتين ولو من بعيد.

غرقت عينا الشاب وأصابعه سريعة الحركة، في شاشة هاتفه، بينما التصقت أرنبة أنف الفتاة بزجاج النافذة البارد. تشبه طفلة صغيرة وهي تحتضن بين ذراعيها حقيبة جلدية كانت قد أصرت، منذ خروجهم من بوابة المطار، على حملها دون بقية الحقائب التي تكوّمت بهدوء في صندوق السيارة الضيق.

ربت أبو ثامر بقوة على كتف ياسين وشكره للمرة الثالثة على

جهده، مضيفاً أنه لولا الصعوبة التي يواجهها في الرؤية والقيادة تحت جنح الظلام، لأراحه من رحلاته الطويلة المسائية، وتلك بالتحديد تلك الشاقة التي يضطر فيها لاصطحابه إلى بغداد. كان الخطر القابع في كل حجرٍ صغير من طريق بغداد - الموصل، يلقى سخرية أبو ثامر الذي كان يروي ما يصادفه وياسين، ضاحكاً مستهزئاً، بينما كان الأخير يتضرع للطريق بآيات القرآن الحافظة، ودعوات والدته ووعيد زوجته، كي يصلا آمنين.

في كل مرة يخرج فيها مع أبو ثامر، كان ياسين يودع منصور ومصطفى ونجلاء، يوقظهم إن كانوا نائمين، يحفظ ملامحهم، يقبلهم ويحتضنهم طويلاً، ثم يخرج على عجل. يفكر طوال الطريق بشكل جثته، وبالطريقة التي سيبلغون عائلته بالخبر المفجع. هل يدرك أبو ثامر التأثير الحقيقي لكل رحلة من تلك الرحلات على حياته، كل خصلة شيب تضيفها إلى رأسه وكل دمعة تخفيها فرقان عنه. كان يتساءل دوماً، وحتى هذه اللحظة التي يبدو فيها أبو ثامر مختنقاً بالحزام على صدره وقد أدار رقبته يمازح ابن أخيه، هل ستكون خسارة أبو ثامر إن تُوفي، بحجم خسارته هو؟ وهل يعني له الموت ما يعنيه له هو؟ بعد كل هذا الوقت الذي تقاسمه مع أبو ثامر، هو في الحقيقة لا يعرفه. خطر له أخوه حسين، هذا المجهول أبداً بالنسبة إليه، الأخ الذي يكبره بحوالي عشر سنوات، قليل الكلام، وقليل الحظ كما كانت أمهما تردد دوماً. على الأخ الأكبر أن يُطاع ويُحترم، وليس أن يُعرف بالضرورة.

كان ياسين في التاسعة من عمره، عندما ترك حسين المنزل ليستقر في الجامع ويصبح من سدنته. يزورهم بلباسه الطويل وبغطاء الرأس الأبيض، فيبدو أشبه بملاك طاهر. كانت له ابتسامة خجولة، ينتظره ياسين عند باب الحديقة، يحضر يوم الجمعة، في يمناه كف عروسه دجلة التي يسبقها ببضع خطوات، وفي يسراه الحلوى. لا يذكر عرس حسين، رغم محاولته جاهداً، وطلبه من والدته أن تقص عليه تفاصيل العرس، هي التي رحلت عنها ذاكرتها منذ زمن.

«اشو ما يبين شي من هوني»، تذمر أبو ثامر قائلاً، وقد أحس بتململ الفتاة فواساها وهو يرى الموصل ليلاً لأول مرة بعيني سائحة. «كنت نحب نشوف الموصل مثل ما حكالي عنها يحيى»، ردت الفتاة ببعض إحباط. «الموصل حلوة كثير. ما تلقين مثلها مكان على وجه الأرض. راح تشوفيها بالنهار»، أجابها أبو ثامر، قبل أن يقاطعه يحيى، «مليكة، ماما عالخط».

توقفت السيارة على الرصيف المقابل لمنزل أبو ثامر. تعاون يحيى وياسين في حمل الحقائب، بينما ابتعدت مليكة بالهاتف والحقيبة الجلدية الثقيلة نحو بوابة الفيلا. فُتحت البوابة الرئيسية ليخرج منها شاب مسرع. أطل نصف رأس سيدة من باب المنزل، قبل أن يفلت من جانبها طفل في حوالي السادسة من عمره. «ثامر، دير بالك لا يروح هاني عالشارع»، صرخت، فاستدار ثامر

مشيراً لها بكفه، ثم حمل الطفل، فاختفت خلف البوابة، بينما مضى هو إلى الرصيف، مرحباً بيحيى ومليكة.

اقترب أبو ثامر وبيده عدة أوراق نقدية، من ياسين الذي مسح كفيه المتعرقتين. كانت تلك الفرصة الأخيرة ليحدثه. وقف يحيى وثامر من بعيد يستعجلانه، بينما وقفت حيرة ياسين وخجله بينهما. مسح ياسين جبينه ورقبته بمنديل، وتغلب على حشرجة صوته بصعوبة، «أبو ثامر .. طمعان بكرمك».

(8)

تأرجح رأس حسين، تارة يميل باتجاه علاء الجالس إلى يساره ولا يطيل، وتارة يعتدل ويستقيم، قبل أن يعود فيميل نحو أبو أميرة، مستنشقاً بعضاً من نسائم شباط الباردة. كان جابر قد شيد سقيفة صغيرة في حديقة منزله، حيث جلس جمع الضيوف وامتدت موائد الطعام والشراب. تنقل ثلاثة صبية بصواني البقلاوة والشاي، بين الكراسي المتناثرة بشكل عفوي، بينما تجول جابر كالطاووس الفخور بين المدعوين. كان يجلس فيسامرهم لبضع دقائق، قبل أن يُكمل جولته التي يقطعها بين حين وآخر، بمناداة أحد الصبية، طلباً لمزيد من الحلوى الشهية هنا، أو الشاي الأسود الثقيل هناك.

كانت هيبة رداء الحجي حسين والمؤذن أبو أميرة، إلى جانب الهيبة التي يتركها زي علاء، كافية ليمتد حاجز البُعد بينهم وبين بقية الرجال، لذا فقد بدا أن رجال الجامع لا يتشاركون أي حديث خارج ثالوثهم المقدس.

على خلسة من الجمع المنهمك، تغطت الأوراق الخضراء تدريجياً وفي هدوء بالندى. ثقلت، فانحنت ريانة حُبلى، حتى

لتلثم الأرض. لمعت قطرات المطر الخفيف تحت أشعة شمس خجلى تتسلل بدلال، من خلف قطع السحاب القطنية المبعثرة. تبللت أشجار الليمون وأزهار الفل، وحتى اللوزة العملاقة الوقور والحشائش القصيرة غير المشذبة. تمايلت أعناق الأزهار الغضة، وابتل بدوره سطح السقيفة، فهبطت بسلام بضع قطرات باردة لسعت جباه وأنوف الجالسين. ارتفعت الضحكات وازداد الطلب على الشاي الذي يأتي وفي أكمامه الدفء لهم هدية.

قاطع أبو أميرة الأهازيج، حين مال برأسه نحو حسين وعلاء، وقال «هذا المطر لعب. لازم تشوفون شنو صار بينا بعاصفة هنغاريا». «هنغاريا؟ مازحه علاء، حجي أبو أميرة يمتى سافرت برة الموصل؟».

لم تكن هذه أول قصص أبو أميرة العجيبة، ولا أول دولة بعيدة من دول العالم يدعي زيارتها، وهو لا يملك جواز سفر حتى، كما يعرف الجميع. إلا أن حسين كان بحاجة ماسة لأن يصدق تلك الادعاءات. فبضع كذبات، بالإضافة الى مشاكسات علاء، تكفي لتشغله عن التفكير في كل خطوة يقوم بها ياسين، اليوم، إذ كان موعد وصول جماعة أبو ثامر، مجهولاً، أشبه بمتاهة تستهلك أعصابه، وكان منظر أخيه مستجدياً المبلغ، يتكرر في رأسه منذ ذلك الصباح، دون كلل.

استكمل أبو أميرة قصته، بعد أن اعتدل في جلسته وصار مواجهاً لظهر الكرسي، ثم لحسين وعلاء، فحملهما معه إلى حيث

كان في هنغاريا، في بعثة دراسية، قبل ما يقارب الثلاثين عاماً. كان ومجموعة من شباب الموصل الواعدين، يجوبون أحد الأسواق الشعبية المكشوفة هناك وينتقلون بين الأكشاك الصغيرة، عندما لمح أبو أميرة أجمل فتاة رآها، وسيراها في حياته.

«ها أبو أميرة، شنو شكلك عندك سوالف»، مازحه علاء، فاحمرت وجنتاه بخجل أنثوي محبب. «اعترف! أم أميرة تدري بالقصة؟»، استكمل علاء ضاحكاً عندما لاحظ ظل انزعاج على شفتي أبو أميرة الذي استكمل الحكاية رغم كل شيء.

كان يقف قرب أحد الأكشاك البعيدة عنها، وكانت تقف إلى جانب من إحدى صديقاتها، تتناولان كوبين من القهوة الساخنة وبعض الفطائر. أخذت تراقبه من بعيد عندما بادر ببضع إشارات من يده، فردت هي بإشارات مشابهة. لعدة دقائق، تحادثا بحوار صامت لطيف، إلى أن تركت صديقتها وبدأت تخطو نحوه.

أحنى أبو أميرة جمجمته الصغيرة بشعره الأبيض القصير جداً، فتعاطف مع قصته حسين وعلاء. تبين لهما أنه لم يكن يتقن الإنجليزية، وأنه توتر من أمر مغامرته مع الفتاة المجهولة، فسرت فجأة في أوصاله رعدة وأخذ يبتعد. كانت تسير متعقبة خطواته، فيبتعد أكثر. تقترب هي، ويجتهد هو في الابتعاد والاختباء. هل كانت تظنه يلعب لعبة ما؟ يجرها إلى خلوة ما؟ ربما. كيف لها أن تدرك حقيقة الورطة التي أوقع نفسه فيها!

لحسن الحظ باغتتهما عاصفة من مطر وبَرَد. خلال دقائق

قصيرة، تبعثر السوق والباعة. اختفت وجوه صحبه المألوفة، كما اختفت الفتاة الجميلة وصديقتها. بقي في مواجهة مع المجهول والمطر. قذفته السماء الغاضبة بقطعة بَرَدٍ قاسية، فأدمت جبهته، اختلط الدم النازف مع ماء المطر، فكسا نصف وجهه الأيمن ومنعه من الرؤية.

صمت أبو أميرة ليرتشف بعض الشاي. استعجل بمضغ لقيمات من الحلوى، مستمتعاً بالفضول البارز من شرفات أعينهم. اقترب جابر، فنهض الرجال الثلاثة مهنئين ومباركين، ثم جلسوا جميعاً ليتنحنح أبو أميرة ويكمل.

كان بإمكان دوامات الهواء أن تحمل أفيالاً. لم يكن يحمل مظلة معه، حتى معطف الصوف كان رقيقاً لا يسمن ولا يغني...

«وين هالمرة؟»، قاطعه جابر. «هنغاريا»، أجابه علاء بسرعة. «المجر؟» رد جابر، فأسرع أبو أميرة ليسبق علاء «لا. هنغاريا».

ضحك الجميع، بما فيهم أبو أميرة الذي لم يدرك غلطته، ثم أكمل يروي أنه صاح يومها متوسلاً بأبي ذا النون، وبحق الحي الذي سار به الحوت ولفظه معجزة ولِدت تحت يقطينة، فعاد إلى قومه من الموت، إلى أن ظهر من خلف المطر الثقيل شبح لرجل ضخم الجثة.

نبت وجه ياسين فجأة للرجل الضخم في خيالات حسين، ظهر كخيط من سراب نُسج من فم أبو أميرة، ثم انقطع ليتمدد صوراً

نُذرت حبلاً يخنقه. هل ينقذه ياسين كما في القصة يا ترى؟ التفت حوله متجنباً أن تتواجه عيناه مع أي من تفاصيل المنزل أو الحديقة. إن للأماكن طريقتها القاسية في استحضار ذاكرتنا وإن دفنت في بئر. تحت هذه الشجيرات، كانت دجلة تلهو ولا بد كانت مروة أيضاً، وحتما ابنتها في يوم قريب قادم. في سقيفة مشابهة، أقاموا هنا عزاء دجلة الذي لم يحضره. كانوا بحاجة لأن يبكوها ويودعوها بشكل منطقي مفهوم، أن ينثروا الأزهار والماء على تراب حجرتها وألعابها وكتبها، هي التي لا قبر لها. أرادوا أن يُعلنوا رحيلها للجميع، هم الذين لم يفهموا هذا الرحيل أو يتصالحوا معه. ارتدت النسوة السواد أربعين يوماً، ورددوا جميعاً أن ابنتهم اختُطفت في ربيع العمر. ثم التزمت أسرة دجلة، كل عام، بتوزيع أكياس الطعام على الفقراء ليقرأوا على روحها الفاتحة. كان هو الوحيد الذي لم ينخرط معهم في أي من تلك الطقوس، وأصر على أن قوانين الموتى لا تليق بالأحياء.

«على وين حجي، بعد وقت؟»، نهض جابر وتبع حسين الذين وقف مبتعدا. «مروة أكيد تشبهها، مو صحيح؟» أطلق في أثره. «اشبيه هذا .. مجنون!» قال أبو أميرة، «الله يكون بعونه، أبو أميرة.. عنده مشاكل»، علق جابر، فرد آخر «من وين المشاكل؟ لا زوجة له ولا ولد!».

(9)

ضوضاء، تبدأ بشخير وتقلبات بسمة التي تشارك مليكة في غرفتها الجديدة، ولا تنتهي حتى بعد صيحات الديكة، أو طقوس تحضير الفطور واستيقاظ الجميع، فمغادرتهم غرفهم. قبل زواجها بيحيى، كانت روح مليكة تتوق إلى الضوضاء أكثر من أي شيء آخر، وتتضور بشدة إلى الأصوات، دون الطعام والنوم. اعتادت أن ترفع الستائر وتشرع النوافذ، ليدخل الشارع بروائحه وألوانه إلى مسامها فور استيقاظها، قبل أن تصطدم وهي في طريقها لإيقاظ والدها، برائحة القهوة بالهال الموضوعة بجلال ملكة، إلى جانب الصحيفة الفرنسية.

لم يمهلها اجتماع الأسرة منذ وصولها ويحيى قبل يوم أمس، أن تفرغ حقائبها أو تتعرف إلى زوايا الخزائن وأثاث الغرفة. ليس هناك أدرى من مليكة بحقائب السفر، هي التي تحولت إلى حقيبة تتقاذفها الأذرع طوال أعوام طفولتها وصباها. تترك دفء الصيف الفرنسي ووالدها، متجهة نحو قيظ الجزائر حيث والدتها، بمجرد انتهاء الدراسة، لتعود أدراجها من جديد حين ينزع الخريف عن شوارع فرنسا رياشها الفاخر، ويمسح عنها مساحيقها، معرّياً وجه

العجوز القاسي البارد. كأن انفصال والديها المبكر جداً، كتب لها قدراً تتجرّع فيه أقسى البرودة الأجنبية والحرارة العربية.

أخذت مليكة تفتش متململة عن محفظة أدويتها وبعض قطع الملابس الضرورية لرحلة اليوم، عندما سمعت طرقاً على الباب. بدا صوت يحيى قريباً خافتاً، ولم يكونا متأكدين إن كان بإمكانه دخول غرفتها وبسمة. التفتت لتصادف حاجيات شريكتها المؤقتة على كل قطعة من الأثاث، فقررت أن تحادثه من فتحة ضيقة في الباب.

كتم يحيى ضحكة عالية بيده، بينما بدت مليكة حانقة على سخريته وهي تسرع نحو المرآة لتصلح من شكل شعرها، فتتأكد أنه محق، وأن هيئتها غير المشذبة تجعلها أشبه بأسد هزيل. ناولته حقيبته المحشورة خلف الباب بصعوبة، متسائلة كم من الوقت ينبغي للعروس المحافظة على تكلفها والتزام الكمال في مظهرها وهندامها أمام الآخرين. تشتاق إلى بنطالها الجينز وقميصها القطني المخطط العريض، وأن تنهي علاقتها الجديدة بالمرآة، ولو بانفصال مؤقت. مرر يحيى أصابعه بين خصلات شعرها القصيرة ليعيد بعثرته من جديد، ومضى ضاحكاً مردداً " أسد هزيل».

جلست مليكة على طرف الأريكة، بعد أن أسرعت في ارتداء زي مناسب، ورتبت بعض قطع ملابسها خارج حقيبتها. سرها أن نافذة غرفة المعيشة أمامها مشرعة على مصراعيها. اقتربت منها، فغطت جزءاً من وجهها ستارة الدانتيل. وقفت على أطراف أصابع

قدميها، كانت مجرد حاجة لأن تشعر بأنها لا تزال طفلة، لأن تعود أكثر جهلاً وفضولاً. حياها هادي، ثم أسرعت قدماه الصغيرتان عبر ممر الحديقة جرياً صوبها. نبهته بلطف إلى أن يخلع حذاءه، فأسرع إلى المطبخ منادياً أمه، تاركاً خلفه بِركاً صغيرة متقطعة من الطين.

حملت مليكة الآيباد وتبعته مسرعة، إلا أن خطواتها تباطأت بارتباك عندما سمعت بسمة تشكو إلى أم ثامر استغراق مليكة في النوم إلى هذه الساعة المتأخرة، وتكبّرها عن مساعدتهن في أعمال المنزل. لمحت ثامر يقترب في أول الممر، أسرعت لتحييه وتعود معه إلى غرفة المعيشة حيث كان ينتظرهما يحيى.

«اشلون كانت ليلة زميلي بالغرفة»، سأل ثامر ممازحاً، قبل أن يستفسر من يحيى ومليكة عن أحوال أخته ريم عندهم. «الطب صعب وبخاصة فرنسا»، أجاب يحيى، ثم أكمل «هي ومليكة هسه أعز صديقات». ابتسمت مليكة قائلة بلطف، «كنت نساعدها بالترجمة للفرنسية وصار واجب عليك تساعدنا».

تعرف مليكة أنه لا يمكنها التنصل من مسؤولياتها أكثر مما فعلت. كان عليها العمل مجدداً على رسالة الماجستير، ولن تجد أكثر ثراءً من أرض العراق التي ساقتها إليها الأقدار كأغرب صدفة. قاطع ثامر صمتهما يسأل عن موضوع رسالتها. أخافها احتمال أنه كان يقرأ أفكارها، فردت بسرعة «هندسة القباب والمنارات الإسلامية».

دخل أبو ثامر مبتسماً، جلس إلى جانب يحيى، عانقه وبقيت ذراعه حول ابن أخيه، وكتفه ملاصقة لكتفه، كأنه بالاحتكاك به ولمسه يذكر نفسه أنه ليس مجرد حلمٍ عابرٍ جميل. بدا أنه يعارك دموع الفرح التي تزين عينيه منذ وصولهما أرض الموصل، هو الذي لم يستطع تقبل فكرة عدم عودة أسرة أخيه إلى العراق قط. لم يتمكن من فهمها، خاصة أمام كم اللوم الذي يلقي به في طريق من يسميهم «خونة الوطن» و«المتخاذلين الراحلين»، وهو يسامر زملاءه في الكلية.

خيّمت سعادةٌ لينة العريكة، سهلة المعشر، على مائدة الغداء. لم تجتمع أسرة أبو ثامر هكذا منذ زمن، ولا حتى خلال فترة الأعياد التي يبدو دائماً أن على أحدهم أو أكثر، العمل خلالها. ضحكت أم ثامر قائلة، «ما أبالغ لو قلت، آخر مرة اتجمعنا هالشكل كان يوم ولادة هادي»، ثم مسحت على رأس الصغير بحب، فقفز مبتعداً بانزعاج، «إيدك مو نظيفة!». «حبيبي . . أنت هادي وشاذي؟»، ردت ممازحة، ثم استدارت تسأل أبو ثامر الجالس قبالتها في الطرف الآخر من الطاولة، «اشنو راد ياسين»؟

ـ فلوس . . دين علمود عملية والدته.

ـ أي؟ وقلت له ما عدنا؟

هز أبو ثامر رأسه بالإيجاب، ثم التفت مخاطباً يحيى، «ابني، شنو ناوي بخصوص الأرض؟».

(10)

رغم برودة الجو، توهجت حبيبات العرق على جبهة أم حسين وبين ثنايا رقبتها. لم يملك حسين إلا أن يبدو مأخوذاً بمنظر والدته وهي تحكي بانفعال، كما لو كانت شهرزاد. في الأيام الأخيرة، تعافى جسدها الهزيل بسرعة مذهلة. أشرق وجهها وتورد خداها وعادت لها ذاكرتها. أخبرهم الطبيب أنها ومضة الموت، تلك العافية التي تظهر حين يتضوع جسد المريض صحة ونوراً، قبيل انطفائه الأخير.

ابتهجت أم حسين بتحلق الجميع من حولها. تراقصت اللمعة في عينيها اللوزيتين المغبرتين، فبدت كطفلة يوم العيد. أخيراً، اجتمعت الأسرة الصغيرة لأول مرة منذ زمن، من أجلها. طلبت من سحر أن تُحرق بعض الشبّ، خوفا من الحسد والعين. زاد تورّد وجنتيها، وانتشاؤها مع رائحة البخور التي طافت بخفة في زوايا المنزل والحديقة. لم تميز الأكاذيب من الحقائق، حين أخبرها ياسين أن سيارة الأجرة تشكو من عطل ما، وأن الأولاد في إجازة نصف العام، أو حين احتضن حسين رأسها مقبّلاً وقائلاً إن مبلغ العملية صار كاملاً بحوزته.

ـ تعرفون اشلون كان الشتا يدق أبوابنا؟

سألت أم حسين وهي تدير رأسها محدّقة في وجوه أسرتها المحبة، واحداً تلو الآخر، حتى انتهت بملامح نجلاء الباسمة، ثم أجابت نفسها «لما نشوف بزونة السلطان». فقطة السلطان، أو قطة المونة، هي الزهرة التي تتفتح في الشهر التاسع الميلادي من كل عام، فيتفتح معها الشتاء الموصلي القاسي. تبدو كقطة مشاكسة بزغبها الأبيض الجميل الذي تداعبه النسمات الباردة، وتتمايل على أصوات تحطم أكواز المياه الفخارية، أو كما يطلقون عليها «الشغبات».

أسدلت أم حسين جفنيها المجعدين تستحضر تلك الصور التي رحلت مع أهلها منذ زمن. أطلقت آهة تترحم فيها على تلك الأيام، وأكملت تحدثهم كيف كان أهالي الموصل، إذا أُعلن الشتاء عن حضوره، يعتزلون النوم على سطوح المنازل، ويرمون منها الأكواز على أراضي الأزقة السكنية الملتوية. لا بد أن السماء كانت تسمع تحطم مئات الأكواز الفخارية رعوداً يسبق بها سكان الأرض عواصفها العاتية.

خرجت سحر إلى الحديقة تلتقط أطراف حكايا أم حسين، وهي تحمل أطباق الغداء. جلست إلى الطاولة البلاستيكية العريضة، فاكتمل عددهم. وضعت أم حسين كفاً مرتعشة على كتف ولدها الأكبر، وتمتمت «كل شي ولو وقتو»، ثم ابتسمت حين سألها مصطفى عن «المونة»، فأخذت تعدد المواد التي كانت

تُخزن قديماً من حنطة وطحين وأرز وفاكهة وخضار وأعشاب وورد جوري لاستخراج ماء الورد، لا لمجرد مواجهة قسوة الشتاء الموصلي الذي تجمّد على أثر أنيابه نهر دجلة مرتين، إنما تحسّباً أيضاً للحرائق والحروب والحصارات، كما سبق أن حدث في عام المجاعة أيام العثمانيين، أو قبله عند الحصار الكبير للموصل من قبل نادر شاه.

تبادل منصور ومصطفى النظرات وقد فهما دلالة أكوام المعلبات المكدسة في الصناديق القابعة في زوايا غرفة جدتهم، أدركا معنى أن يخزن أحدهم حتى أظرف الملح والفلفل الصغيرة وأوراق النعناع الذابلة التي اعتادت رفوف الغرفة استقبالها، رغم الشكوى من قلة المساحة. وبينما قضى الولدان عمراً في السخرية منها وفي سرقة مؤونتها، عاشت هي عمراً أطول بين مخاوف الحصار وفزاعة الجوع.

فجأة، عاد الإعياء يطل بوجهه الدميم من ملامح أم حسين التي هرمت مجدداً. حملها ياسين وحسين إلى غرفتها حيث رقدت بهدوء، وعاد ياسين إلى الحديقة، بعد أن طلبت منه الانفراد بحسين. بدا كأن سحر شهرزاد قد انطفأ فجأة، أو كأن مسروراً قد مر بسيفه الصقيل من جديد. غادرت سحر إلى مطبخها والأولاد إلى دروسهم وانتهت الحكاية الأسطورية الحالمة حين تخلى كل منهم عن دورٍ كان يمثله.

تمددت أم حسين في حجرتها، بينما جلس حسين أرضاً

بالقرب منها. سألته دون أن تحرك رأسها المستسلم بهدوء على الوسادة وهي ترمق مروحة السقف من دون ملل، إن كان يذكر والده حين كان يردد أن الصيف أبو الفقير، فهز رأسه إيجاباً. لم يستوقفها رده، وأكملت حديثها ببطء لتخبره أن والده الذي نشأ في الموصل القديمة، ليس إلا حرفي نشأ في مدينة مكتظة بالحرفيين، تدخل وظائفهم في السبات، كل عام، كلما أتى الشتاء. ولأن مزارع عباد الشمس البسيط هذا، أراد لأبنائه نوراً لا ينطفئ ودفئاً لا يفارق جيوبهم، فقد اختار لبكره حسين وظيفة مهيبة لا تؤثر بها الفصول.

لطالما أحست أم حسين أن سفر زوجها المبكر إلى ربه، حرم ولديه من معرفته جيداً ومن أن يراه أحفاده، هي التي آمنت أنه أفضل رجال الأرض، بقدر ما استوعبت نظرات اللوم تجاهه في عيني حسين وياسين. لم تعرف كيف تقنع حسين أن والده اختار له الحياة الأمثل، ولم تفلح في جعله يرى كم كان محظوظاً، وها هي اليوم تجد صعوبة أكثر في ما تريد قوله. عادت تكرر «كل شي وإلو وقتو». أخبرت حسين أنها لا تريد أمواله، إذ تعرف أن أيامها في هذا العالم معدودة. يكفي أنها تشعر بالغربة بعد رحيل كل من تحب. كان حسين لها حلماً، وهي اليوم تريد له الحلم الذي تعرف أنه يحيا من أجله. تريد له أرضاً بدلاً عن الولد، شيئاً يخلفه بعد مماته.

خرج حسين إلى الحديقة مسكوناً بكلماتها.

-«حجي، حصلت المبلغ من أبو ثامر واتفقت وي الدكتورة على العملية الأسبوع الجاي.» بشره ياسين.

رن هاتف حسين، مقاطعاً شروده. بعد لحظات من الصمت وهزات الرأس المتتابعة، أعاد الهاتف إلى جيبه وأخرج سبحته الكهرمان، ثم سيجارة وولاعة. اتكأ على كرسي قريب، وتحشرج صوته وهو يدفعه من شفتيه بصعوبة بالغة، بينما شحب وجهه. قال مخاطبا ياسين:

ـ هذا أبو ذا النون اتصل. يقول أرضي راحت.

ـ اشلون؟

لم يكن ياسين قد رأى حسين بهذه الملامح القاتمة المكفهرة، منذ هروب دجلة واختفائها. اقترب معانقاً. تابع حسين:

ـ توفى صاحب الأرض بتفجيرات بغداد الأخيرة، وورثته ما راح يبيعون الأرض.

غالب حسين دمعة ندت جفنيه الثقيلين. لم يلحظها أحد، لكنها غيمت على عالمه فشوشت صور كل ما حوله.

(11)

اقتربت السيارة من رصيف الجسر ببطء قبل أن تتوقف. قفزت منها مليكة مسرعة، يتبعها أبو ثامر الذي تأكد مرتين من إغلاق باب السيارة. مد يحيى رأسه يتابعهما من النافذة، بينما مالت بسمة برأسها على كتف ثامر بنصف عينين مغمضتين.

وقفت مليكة تتنفس غروب الشمس الموصلية لأول مرة من على أحد جسورها. فكرت أن الموصل تتزين بالجسور، كما تتزين البدويات بالوشوم، وأنها جسر عريق يصل العراق بالعراق الآخر، والماضي بالمستقبل. شعرت كما لو أن كل شيء من حولها يلتف مع القرص الذهبي الآفل، ويودعه كأزهار عباد الشمس المخلصة أبداً في طقس عشقٍ صوفي فريد.

تساءلت، وهي تحمل كأساً من شراب الزبيب البارد، إن كان هذا أقدم جسور المدينة، فعاجلها أبو ثامر، مأخوذاً بدور الدليل العارف بأسرار مدينته الحبيبة، بالقول إن أقدم جسور الموصل هو الجسر الحجري المبني على أنقاض سد آشوري قديم على شكل قناطر مجزأة. لم يكتمل قط بناؤه، لذا يتم استخدام القوارب للوصول إلى الطرف الآخر. استغربت وجود نصف جسر حين

فسر أبو ثامر ذلك على أنها وسيلة دفاعية، إذ في حال حدوث اعتداءٍ أو غزوٍ ما، يتم سحب القوارب ويبقى للعدو نصف جسر ومصير أقرب إلى الهلاك غرقاً.

مع كل جانب يتكشف عنها، أصبحت أوضح لمليكة صورةُ الموصل التي تجيد الدفاع عن نفسها وأبنائها. الملكة الآشورية الصامدة التي تقتل أعداءها بسحرها وفتنتها، ثم تعود حضناً يوزع الأمومة خبزاً دافئاً على أبنائها، كما حدث مع الجسر الجديد الذي بناه الإنجليز، ثم بعد أن تهدم، استخدم الموصليون خشبه الفاخر في بناء المكتبة العمومية.

عاد الجميع إلى السيارة، فاستطرد أبو ثامر مسرعاً في قيادته نحو منطقة الغابات دون أن يترك لغيره مجالاً للحديث يروي قصة الجسر الثالث أو ما يُعرف بجسر الشهداء. كان الجسر قد بني في السبعينات على يد شركة مقاولات صينية، ويحكى أن ثلاثة من العمال الصينيين توفوا أثناء بنائه، وأن جثثهم لا تزال في مكان ما، مدفونة وسط أسمنت الجسر. أوضح أبو ثامر بكثير من الحماسة، أن السبب الحقيقي وراء تسميته بجسر الشهداء هو حصار الموصل من قبل نادر شاه عام 1743 ميلادية، على عكس ما يعتقد الكثيرون في أن تسميته جاءت إحياءً لشهداء الحرب العراقية الإيرانية وتخليدهم.

استمر أبو ثامر يجيب على تساؤلات مليكة، بينما بدا الجميع في غاية الملل، بدءاً بثامر، ووصولاً إلى يحيى وبسمة. قاطعته

بسمة بعد أن كانت تنتظر الفرصة السانحة لذلك منذ بضع دقائق، فسألت مليكة بفضول عن قصة لقائها بيحيى. احمرت وجنتا مليكة وتنبه البقية في صمت مترقبين.

- تخلاط بالموبايل.

أجابت مليكة، باقتضاب، فبقيت أفواههم محشوة بالخرس ووجوههم بلا ملامح.

- اشنو؟ .. بس؟

علقت بسمة ضاحكة، وابتسم الجميع باستثناء أبو ثامر الذي اختلطت عليه الشوارع السوداء مع السماء المظلمة، وأمسى مقود السيارة عصياً على الانقياد بين يديه المتعرقتين. تدارك يحيى خجل مليكة فأكمل يحدثهم عن يوم لقائهما الأول. على إثر صوته، عادت مليكة إلى ذلك اليوم بالتحديد حيث قاعة الجامعة الواسعة التي تشهد المحاضرة الأخيرة لتاريخ الحضارة. تلفتت تبحث عن هاتفها وسط زحام أجساد الطلبة المحيطين بالدكتور المُحاضر يودعونه، عندما وجدته وقد دُفع بعيداً على إحدى طاولات المدرج العريضة. حملته مسرعة لترميه في جيب بنطالها الواسع وتجري في الممرات إلى قاعة المحاضرة الأخرى. اكتشفت لاحقاً وهي تقلب الصور فيه ذلك المساء، صورةٍ لشابٍ لم تتذكر رؤيته في الحرم الجامعي من قبل. تأكدت أنها القاعة نفسها والمُحاضر نفسه، واستنتجت أن الصورة لا بد لشاب كان يجلس على الطاولة حيث وجدت هاتفها.

- عبالي تلفوني. أخذت يومها السيلفي الأخير وي الدكتور

ضحك يحيى. وأكمل يشرح تفاصيل الحكاية. ذلك اليوم، دخلت مليكة القاعة وبيدها صورته التي كانت قد طبعتها وغلفتها جيداً. أخذت تبحث في الوجوه بخجل عن ذلك الشاب في الصورة. غاب يحيى عن الجامعة الأسبوعين اللاحقين، وبقيت مليكة تكرر البحث حتى الأسبوع الثالث.

توقفت السيارة بهم فجأة. لم يكن قد بقي الكثير ليصلوا إلى المتنزه، إلا أن الإعياء ظهر جلياً على أبو ثامر. استبدل ثامر مكانه مع والده، بينما جلس أبو ثامر إلى جوار مقعد السائق. التفت أبو ثامر برأسه إلى الجالسين خلفه بعد أن ارتاح لبضع دقائق قصيرة.

- بنتي مليكة، سمعتي عن قصة الثيران المجنحة؟

عاد الجميع إلى تبرمهم الخفي، في الوقت الذي اشرأب فيه عنق مليكة بعد أن أشارت بالنفي. تمددت رقبة أبو ثامر وهو يروي تفاصيل اكتشاف واستخراج عيني ثورين مجنحين آشوريين من قبل فرقة علماء ومتخصصين بريطانيين قبل حوالي عشرين عاماً. اتسعت مقلتا مليكة وتقافز الفضول منهما جلياً. قال أبو ثامر إن عيني الثورين تعرضان في متحف الموصل، بينما تعذر استخراج الثورين أو التنقيب عن بقية الكنوز الآشورية لعدم توافر الإمكانات والوقت.

لم تشأ مليكة التشكيك في حديث أبو ثامر الوقور، إلا أنها لم

تتمكن من تصديقه أيضاً. هل من المنطق أن لا يمتلك بلد بثروات العراق إمكانات للتنقيب؟ تساءلت أيضاً عن الكنوز التي تسير عليها الأقدام العراقية السمراء حافية، وتشق خطوط المجاري فوقها الطرق، كما لو كانت قدراً مكتوباً على راحة اليد. هل تدري أيادي الأطفال المشققة وأذرعهم الممدودة طلباً لشبع مؤقت، أنها لو حفرت قليلاً حيث تنغرس جذور النخلات العراقية الشامخة فستجد هناك قصور آشور بانيبال وجواهر سنحاريب؟ ما هي تلك التعويذة الملعونة التي أصابت هذه الأرض المباركة لتدفن الحضارة والأصالة فيه تحت طبقات الدمار والخراب.

ـ وين مكان الثورين المجنحين والآثار لُخرين، يا عمي؟

سألته مليكة، فبدا أبو ثامر ساهماً، فخوراً، حين رد: تحت جامع النبي يونس.

(12)

كيف تخبر شخصاً لم تلتقِ به قط أنه قد لا يرى أخاه أبداً؟ تساءل يحيى منذ اللحظة التي قرر ومليكة فيها القدوم إلى العراق، لا بل منذ اللحظة التي أدرك والدا يحيى أنهما غادرا العراق وأنه غادرهما للأبد. عاش يحيى ووالداه دور اللاجئ المحروم، طوال ما يزيد على عشرين عاماً. تشرب ثلاثتهم الغربة حتى لم يعد ضباب فرنسا كئيباً وهو يتسرب إلى عظامهم. بدأ الأمر حين لم يعد والداه يذكران دجلة والفرات كلما مرا بنهر السين، أو عندما لم يعودا يطلبان مساعدته في ملء الأوراق الحكومية والمعاملات الرسمية الفرنسية.

الآن وقد تعرف بعمه أبو ثامر وأصبح لذلك الكيان الشبح ملامح بشرية وقلباً، اتضح أن مهمته ستكون أشد صعوبة. في لياليه الأولى في العراق، جلس يستمع إلى ذلك العميد المخضرم في كلية الإعلام وهو يستحضر صور ماضٍ جميل، ثم يكاد يغص بكلمات اللوم على من «راح وباع العشرة». كيف الحال إذاً بمن جاء يبيع الأرض؟ قطعة الأرض التي بقيت بمثابة الشعرة الأخيرة التي تربطه ووالديه بهذا الوطن، لم يعد من داعٍ لاستبقائها ولا

للاحتفاظ بذلك الانتظار الذي يزينه أمل كاذب بالعودة. جاء هو وعروسه ليقطع حبله السري بمن ظن نفسه أماً له. أخبرته والدته أنه حق ليس للعراق. بينت له أن الوطن أكثر من مجرد ذكريات طفولة وأناشيد ولاء. أن عليه أن يكون دافئاً، أن يُطعم معدات أبنائه وعقولهم، فيقطنوا في كنفه الآمن دون خوف. حدثه والده أن الوطن والموت لا يجتمعان. سألته والدته إن كان يشبه أياً ممن في العراق، إن كان لون جواز سفره يشبه ألوان جوازات سفرهم، أو إن كانت أحلامه كأحلامهم حتى. يومها رد يحيى بالنفي وبالفرنسية، ثم أسرع يبشر مليكة أنهما في طريقهما للحصول على المال الذي يتكفل بمستقبلهما.

- على راحتكم ابني. أخبار أرض أبيك انقطعت عنا مثل ما انقطعتوا. أعطيني كم يوماً؟ أسأل.

رد أبو ثامر. جاء جوابه شديد الاقتضاب وصادماً، مغايراً لكل ما توقعه، إذ بدا له أن عمه يخفي غضباً وشعوراً عارماً بالخيبة. إلا أن مليكة طمأنته، أخبرته أن رجلاً كأبو ثامر أكثر واقعية وأنه سيتفهم. وبالفعل، فقد وفى أبو ثامر بوعده حين وقف يحيى ومليكة يتقدمهما أبو ثامر وياسين أمام الأرض، بعد أقل من أسبوع.

كانت أرضاً صغيرة الحجم بالنسبة لما تخيله يحيى ومليكة منذ أسابيع طويلة، يحيط بها سورٌ مهترئ لا يصلح لشيء، ولا حتى لحماية الأعشاب والحشائش الصفراء المنثورة بفوضى بين

شجيرات الليمون واللوز والياسمين. بدت لياسين قريبة الشبه بأرضه، الرائحة ذاتها للتراب الموصلي المعطر، والنسائم التي تلهو بخصلات جدائل الأشجار قرب العصر. في وسطها، إلى اليسار قليلا، كما القلب من الجسد، وقف بناء ضئيل من الطابوق تغلف نوافذه قضبان حديدية صدئة توهم بالحماية والأمان، من بينها تتسرب أبخرة المياه المغلية في القدور العميقة الملونة، وصرخات ماكينة الخياطة المنهكة تحت وطأة قدم أم جواد الكبيرة.

راقبتها مليكة من إحدى النوافذ تقطع خيطاً من قماش سحبته بقوة من بين أسنان إبرة الخياطة الحادة. راقبت أسنانها البيضاء الكبيرة تقطع الخيط، ثم تلوكه فتكوره في فمها قبل أن تبصقه، بينما تسحب كفاها السمراوان الخشنتان بقية جثة القماش إلى صندوق قريب.

فُتح الباب بعد حوالي عشر دقائق من الانتظار، فاعتدلت مليكة بجسدها لتقف متصلبة ملاصقة ليحيى، بينما مال ياسين يسأل أبو ثامر عن موعد بداية تسديده للدين. أشار أبو ثامر لياسين بالصمت، ثم همس في أذنه مباركاً نجاح عملية والدته، قبل أن يبتسم في وجه السيدة الضئيلة كبيرة الأطراف.

ـ يا هلا بيكم ومية هلا. اتفضلوا.

حيتهم أم جواد، ثم تجاوزت عتبة الباب. عدلت من عباءتها السوداء الطويلة التي تغطي جسدها كله ليبدو من تحتها قماش أسود يلف شعرها ورقبتها، وثوب أسود يفترش جسدها بأريحية.

تبعها ثلاثتهم إلى غرفة هي الأوسع، بسجادة ومساند على الأرض ينتصب بينها بوقار تلفاز قديم مغطى بقطعة قماش مطرزة بورود وأقواس زهرية وزرقاء. على الحائط العاري إلا من بعض القشور والبقع الصفراء الرطبة، فُرشت لوحة ضخمة من قماش مرسوم عليها صورة لسيد وقور بجلباب وغطاء رأس أخضر وسيف عريض مسلول بفقار في طرفه.

تكررت عبارات الترحيب وفترات الصمت بين أم جواد وأبو ثامر، حتى دخلت فتاة تتخطى أطراف عباءتها الطويلة السوداء، فلا تتعثر ولا تهتز الصينية بين يديها. قدمت لكل منهم الشاي، ثم تركت أطباقاً من القشطة والمربى والعسل والجبن، وبعض الخبز والخضر أمامهم، قبل أن تجلس إلى جوار أم جواد التي قالت تشير إليها: «بنتي الكبيرة رباب».

عرّف أبو ثامر أم جواد بنفسه بكل لباقة، وترك أمر يحيى ومليكة معلقاً بين عيني فضولها. شعرت مليكة بخوف تلك السيدة حين علمت أن من يحدثها عميد في كلية الإعلام. شعرت بارتباك القروية البسيطة أمام كل ما له علاقة بهذا العالم البعيد، المرمي خلف شاشات التلفاز المضيئة. تماسكت أم جواد بعد لحظات قصيرة، فبدت لمليكة التي راقبتها وتفحصت كل حركاتها أشبه بنخلة عتيقة ممتدة الجذور.

سأل أبو ثامر أم جواد عن أحوالها، فردت بابتسامة مقتضبة، ثم حمدت الله وهي ترفع رأسها وكفيها إلى سقف المنزل. بعد فقدها

لزوجها في سنٍ مبكرة، حملت عبء أبنائها الخمسة وحيدة. يعمل ولدها حيدر في بيع الخضار، بينما تساعدها رباب في أعمال الخياطة وتلتحق الصغيرتان بالمدرسة.

بالنسبة إلى أم جواد، كان يكفي أن تمضي الأيام كما هي. لم تعاتب الأحوال يوماً، ولم يزعجها صوت ماكينة الخياطة ولسعاتها المتكررة، ولم تشفق على أيتامها من حياة قد لا تشبه الحياة كثيراً. كانت تعيش الرضا بخطة كتبها لها القدر، تقرأها على خطوط جبهتها وعينيها أمام المرآة، فتنفذ طائعة. تعودت آلام الظهر والرقبة وتيبس مفاصل قدميها، تعودت غشاوة عينيها كل مساء وزيارات جواد لها في كل منام. وعندما سألها العميد الوقور عن منزلها وأرضها، أخبرته بكل فخر وامتنان إنها هدية الأقدار لها ولأيتامها. كانت أم جواد مجرد عروس جديدة حين انتقلت مع زوجها من البصرة إلى الموصل. كان زوجها قد حصل على وظيفة جيدة وأرض هي كل ما ترك لها. أخذت تروي لهم معاناتها مع الغربة ومرارة البعد عن الأهل والأحباب. ليست الموصل كالبصرة في شيء.

ـ يقولون اللي ما يروح البصرة يموت حسرة.

قال أبو ثامر مبتسماً، فأكدت أم جواد صحة هذا المثل. اعتدل أبو ثامر في جلسته، بدا له الكلام أكثر صعوبة، فعاد الصمت المزعج ليتربع بينهم من جديد. تنحنح، فخرج صوته رخيماً كأنه يحاضر بين تلاميذه. أشار إلى يحيى قائلا إنه ابن أخيه وصاحب

هذه الأرض وقد جاء ليبيعها. لم تتبدل ملامح أم جواد التي بدت كالحالمة. وقفت بهدوء تنظر إليهم، تقدمت، ثم عادت لتقف كتمثال رخامي بديع. تعلقت أعينهم بها، بينما شردت هي إلى حيث أصوات ماكينة الخياطة ورائحة الخضر الطازجة في صناديق حيدر كل صباح. عدلت من عباءتها التي كادت أن تسقط من على رأسها إلى كتفيها النحيلتين، ثم خرجت بخطوات ثقيلة من الغرفة.

نهضت رباب تشعل الصوبة، ثم عادت فجلست حيث كانت تجلس والدتها. نظر أبو ثامر إلى يحيى ومليكة الحائرين. دخلت أم جواد إلى الغرفة مسرعة، تحمل بيدها سكين مطبخ كبيرة شهرتها أمام أبو ثامر الذي نهض راكضاً صوب الباب، يتبعه يحيى ومليكة مذعورين. فُتح الباب بقوة، وأمام الصرخات المجنونة لأم جواد، أسرع الثلاثة إلى سيارة ياسين، مبتعدين.

التفتت مليكة من مقعدها عبر النافذة الخلفية للسيارة، تراقب السيدة النخلة بسكينها التي تلمع تحت شمسٍ غاربة. انتشرت حمرة الشفق، فبدت الأرض والمنزل من بعيد مخضبين بالدماء.

(13)

صار حسين منصور مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى، أنه يحمل في صدره حلماً ملعوناً يفضل أن يبقى مجرد حلم إلى الأبد، فيحول كما ميداس كل ما يلمسه في سبيل تحقيقه، إلى سراب. لم يعد يهمه أمر المال الذي آمن الآن أنه أصبح عقاب السماء له، بعد أن بخل به على والدته فاستحال غولاً يخشاه.

طوال الأسبوعين الماضيين، قسم حسين منصور أوقاته بين عمله في الجامع وبين رعايته لوالدته في المستشفى، بعد عمليتها. أسعده تماثلها للشفاء بسرعة أدهشت الأطباء، إلى أن عادت إلى غرفتها تجمع المزيد من أظرف الملح والفلفل والسكر، تراقب نجلاء من نافذتها، وتتشاجر مع فرقان حول دقائق تخدير الشاي الإضافية التي تجعله مُراً، وكمية معجون الطماطم، أو حجم قطع اللحم في المرق.

ارتفع صوت أم حسين في بيت ياسين فعادت إليه الحياة، في الوقت الذي عادت أشباح حسين تطارده في غرفته الباردة. ذلك الصباح، وجد نفسه أمام الأرض من جديد. يبدو أن التخلص من عادة لازمته لسنوات طويلة، أكثر صعوبة من التخلص من حلم.

يفكر في كثير من الأحيان بالأرض، ليجد نفسه أمامها يراقب صفوف أزهار عباد الشمس تتحرك يمنة ويسرة، مع نسائم ربيع الموصل. يشتاق إلى تفاصيلها، فيشتم رائحة تربتها الزكية إذا ما ضربتها شمس الفجر بنداها، كأنه يقف وسطها. كأن حسين منصور قد أصبح مع الأيام جذراً مغروساً فيها، تلاحم هو والأرض حتى وجد نفسه قطعة منها.

تذكر وهو يقف باستقامته المعتادة، مُقلّباً حبيبات الكهرمان المتلألئة بين أصابعه، حكاية رواها أستاذه في المدرسة، عن حوت يونس الذي لا يزال حياً يجوب البحار والمحيطات، مسبحاً لله. صدق الحكاية، حتى أنه كان يرى الحوت في مناماته يناديه، يزوره عبر نهر دجلة ويترك له شبه ابتسامة ودودة تُظهر صفاً من الأسنان شبيهة بمئات الفراشي العملاقة، قبل أن يرتطم جسده الضخم بالأمواج المتخبطة، ويختفي وسط زرقة الماء. يرتجف حسين خوفاً من الحوت ورهبة، ثم يستيقظ مبللاً في أغلب الصباحات. سخر منه زملاؤه لسذاجته، فتظاهر بالنسيان، لكنه بقي محافظاً في حجرة بعيدة ما من قلبه على تلك الحكاية والرؤى، حتى علم أن اسم عروسه «دجلة»، ففهم عندها أن هذا هو تفسير المنام، وغادر الحوت قلبه حتى عاد اليوم من جديد. سمعه يلاعب الأمواج المتلاطمة حوله، ورأى زبد البحر الأبيض يغطي جسده، فارتعدت أوصاله لمجرد التصور. التفت إلى أرضه يودعها للمرة الأخيرة، مسح جفنه مغالباً دمعة لم يرد لها أن تسقط، زفر ثم رفع رأسه إلى

السماء الغائمة متمتماً: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

في الوقت ذاته وبين درجات جامع النبي يونس، وقفت مليكة تراقب النخلات التي ذكرتها بأم جواد. أدارت ظهرها باستياء، ثم أسرعت تعتلي ما تبقى لها من الدرجات المائة والثمانين. استعجلت قدميها لعل الصور والأصوات المتسارعة في عقلها منذ يوم أمس، تختفي ولو للحظة. تكرر في ذاكرتها منظر أبو ثامر ويحيى وهما يتدافعان خوفاً، من باب منزل السيدة النخلة، فشعرت بالخجل كلما نظرت إلى ذلك العميد الذي أكبرت وقاره وهيبته منذ قدومها إلى العراق. كانت هيبة جديدة تتهشم أمامها بعد والدها.

عانت مليكة ولسنوات طويلة في طفولتها وصباها من وزنها. كانت والدتها تعمد إلى تسمينها أثناء زيارتها لها في الجزائر كل صيف، بحيث تعود مليكة إلى والدها بصحبة أرطال إضافية من الدهون. كانت تلك الكيلوغرامات هي الرسالة التي تبعثها أمها، عبرها، إلى زوجها السابق بسيط الحال. أرادت له بأن يعرف أنها وقعت على زوج أكثر ثراءً وكرماً منه، وأنه الوالد الذي لن يستطيع منح السعادة حتى إلى ابنته، مهما حاول.

ينكسر والدها كل خريف، أمام ملابس مليكة التي اقتنتها والدتها لها من دور الأزياء العالمية، ومن حقائبها وأحذيتها باهظة الثمن، وقطع الذهب التي تزين بها معصميها وعنقها الصغير

وأذنيها. حين بلغت البنت السن التي تمكنها من فهم تلك النظرات المنكسرة والعصبية التي يبدو عليها والدها، بعد عودتها كل صيف، أصبحت تخبئ الملابس وقطع الذهب ومستحضرات التجميل الغالية جيداً، فأصبح والدها بدوره يخفي عنها انكساره وضيقه.

خلعت مليكة نعليها بهدوءٍ تسلل إلى قلبها مع وصولها عتبة الجامع المهيب. عدلت من وضع شالٍ كانت قد أعطته لها بسمة قبيل خروجها، لتخفي به شعرها. صلت ركعتين، ثم اقتربت من القبر الطويل الذي يرقد فيه النبي يونس. لم يسبق أن دخلت مسجداً، أو زارت قبراً، أو سمعت أذاناً يأسر غيم السماء بعذوبته، قبل زيارتها هذه إلى الموصل.

مشدوهة، انحنت تمرر أصابعها الطويلة على حافة الغطاء الأخضر المطرز المحيط بالقبر، ثم تعيد تحديد الحروف القرآنية البارزة منه. تساءلت كيف نُحدث من توفي منذ قرونٍ طويلة مضت؟ بل، كيف نشكو همومنا إلى من لا نعرف ولم يسبق أن التقيناه؟ لم يقفز إلى مخيلتها ليسعفها في تلك اللحظات سوى طقوس الاعتراف في الكنائس. جلست وتربعت، ثم تخيلت القبر نافذة مثقبة تفصل بينها وبين القس. حولها انشغل كلٌ ببث أحزانه. سمعت أصوات دمعاتهم الساخنة وهمسات قلوبهم التي أضناها الصبر والانتظار. كانوا يتصرفون بأريحية من يُكمل حديث الأمس، لا أكثر. تأكدت حينها أن للعادة دوراً كبيراً في تشكيلنا،

ثم في بعثرتنا، وتساءلت، هل تروي مشكلتها بعربيتها الجزائرية الركيكة، أم بلغتها الفرنسية، وهل يفهم هذا النبي المدفون غير لغة أرضه وزمانه؟

اختارت مليكة لغة لا تربكها فيها الحروف والعبارات. غطت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء. لم تخجل من دموعها في مكان تبدو فيه الانكسارات أمراً عادياً. تمنت أن لا تضيع آهاتها وسط كل تلك الزفرات التي تغادر صدور أصحابها في طريقها إلى السماء.

أدركت صعوبة حياتها ويحيى، دون المبلغ الذي كانا سيجنيانه من بيع الأرض. تخيلت عودته وإياها إلى فرنسا خائبين، خاليي الوفاض وبهذه البساطة، فوضعت رأسها بين ركبتيها، أغلقت عينيها، وصلّت كما لم تصلّ من قبل.

هبطت مليكة سلالم الجامع ولم تكن قد أدركت بعد المدة التي قضتها وهي تصلي. كانت متأكدة من حقيقة واحدة هي أن الأمور دائماً ما تبدو أكثر وضوحاً بعد عدة ساعات متواصلة من البكاء. أرخت الشال الذي بدأ يخنقها حول رقبتها وأذنيها، وابتسم ثغرها بعد أن تورم جفناها واحمرت أرنبة أنفها. توقفت فجأة قبل أن تلتفت إلى الجامع الذي صار يعلوها ببضع درجات، وسبع سماوات كاملة. كانت قد تذكرت قصة الثيران الآشورية ذات الأرجل الخماسية والأعين الياقوتية والأجنحة المذهبة، فجلست على حافة إحدى الدرجات، وأخرجت مفكرتها وقلمها. حاولت

أصابعها اللحاق بعقلها، فتعثرت بين الخطوط والملاحظات التي ملأت الصفحات الخاوية.

- لو سمحتِ يا ست، القعدة هنا ممنوعة.

رفعت رأسها لتجد سيداً وقوراً يرتدي زي سدنة الجامع. صمتت تتأمل مسبحة أحجار الكهرمان تدور بين أصابعه.

- العفو. بنتي، تعرفين عربي؟

سألها حسين، فنهضت ببطء وأخفت المفكرة والقلم في حقيبتها، ثم عدلت من هيئة شالها وهندامها. سألته إن كان من العاملين في جامع النبي يونس، فهز رأسه بالإيجاب. ابتسمت بسعادة لأول مرة، منذ يوم أمس.

- تقدر تقولي التاريخ نتاع هذا الجامع يا شيخ؟

-

حجي حسين منصور. أكيد .. يشرفني، تفضلي يا ست...

-

مليكة.

مدت يدها لمصافحته، فامتنع بوضع كفه على صدره، قبل أن يميل صوبها بظل انحناءة.

(14)

ألفت مليكة أريكة منزل أبو ثامر بسرعة. تقبلت أمر مشاركة سريرها مع بسمة، كما تعودت سفرة المائدة البلاستيكية المتجددة كل يوم. أصبحت تكتب بسهولة أكبر وسط ضجيج هادي، أو أمام صوت المذياع على قناة القرآن الكريم المنبعث من المطبخ في الصباح الباكر، وحتى في مواجهة الصوت المرتفع لنشرة أخبار الظهيرة وأفلام الأسود والأبيض في المساء.

احتضنت دفترها الأبيض العريض، وبقلم الرصاص أخذت تكمل تخطيط منارات الجامع ذات الطراز التركي. توقفت حائرة في كيفية رسم الكهف الذي يؤدي إليه نفق ممتد تحت الجامع. كتبت على غرفة ضيقة فيه، «مصلى النساء»، أما الجزء الذي يقع مباشرة تحت قبر النبي يونس، فتركته فارغاً. أخبرها حسين منصور أن في ذلك الفضاء المبارك طاقة عالية للاستطباب، يلجأ إليها المرضى على اختلاف علاتهم، طلباً للشفاء، بينما حدثها أبو ثامر عن الكنوز الآشورية والأكادية المدفونة هناك. بين سرير تتعاقب عليه الأماني بالشفاء، ومغارة علي بابا، تشابكت خطوط قلم مليكة.

وعدها الحاج حسين بمساعدتها في زيارة بقية آثار الموصل ومزاراته، إلا أن حيرتها في إبلاغ زوجها يحيى عن اتفاقها الجديد، منذ ظهر ذلك اليوم، أزعجتها. لم تتعود الاستئذان من أحد، ولا تعرف طريقة لإقناعه إن هو رفض. أيضا، هي لا تعرفه جيداً بعد لتتوقع ردة فعله. تساءلت إن كان عليها طلب مساعدة عمه أبو ثامر، لكنها عدلت بسرعة عن فكرة الاستعانة بوسيط بينهما، وخاصة أن مزاج الجميع، وتحديدا أبو ثامر، كان سيئاً منذ حادثة أم جواد.

استخرجت مليكة ورقة بيضاء نظيفة طوتها من المنتصف، ثم قامت بثني زاويتيها العلويتين حتى التقتا بخط مشترك. استمرت تشكل الورقة بحركة انسيابية عفوية، إذ كانت تلك هي الطريقة الأسرع لاستجماع أفكارها. حملت القارب الورقي الذي صنعته، فتبعها هادي إلى الحمام، فتحت صنبور الحوض وأحكمت إغلاق فتحة الصرف، لتستمع بمشاهدته يمتلئ ببطء. مع تكوّن البحيرة الصغيرة تدريجياً، انسابت أفكارها بسخاء. ناولت هادي القارب الورقي لإسكاته، حتى يحين الوقت المناسب لإطلاقه على الوجه الشفاف للماء.

مرت أم ثامر مسرعة، حاملة صينية الشاي وأواني المكسرات البلورية، صغيرة الحجم، قبل أن تتراجع بضع خطوات إلى الوراء، فتقف أمام باب الحمام نصف المفتوح وتتحقق غاضبة مما لمحته. قطبت أم ثامر جبينها فالتقى حاجباها، قبل أن تضع الصينية جانباً وتغلق الصنبور. أخذت القارب الورقي من بين يدي هادي

الذي انفجر بالبكاء وأعطته لمليكة، دون أن تنظر إليها، ثم نزعت قميص هادي وصاحت برأسها المائل نحو الباب:

ـ بسمة، تعالي سبحي ابنك.

كانت تلك آخر قطرات الماء التي يحتضنها خزانهم. كانوا قد تعوّدوا جميعا على استهلاك أقل قدر من الماء، كما اعتادوا غيابه، فلم يكن ممكنا أو مسموحا أن يدخل الماء، وكذلك الكهرباء، حيز اللهو والمرح. خرجت أم ثامر من الحمام وهي تتمتم بكلام ما عن البطر بالنعمة، ودخلت بسمة على عجل، فحملت هادي وأجلسته في حوض الماء وهو لا يزال يبكي. همت مليكة بالخروج محرجة، فخاطبتها بسمة بلطف:

ـ عندنا الماي والكهرباء هنا ضيوف... مو أكثر.

لم تفهم مليكة إن كانت بسمة تعنيها بكلمة ضيوف، إلا أنها أسرعت إلى حجرتها، حاملة بين يديها قاربها الورقي، حيث كتبت على حافة شراعه العلوية، بخط أنيق، «Mars 27»، ثم جلست تتأمله.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله... لا إله إلا الله

صرخ أبو ثامر، ثم علا صوت التلفاز، فأسرعت مليكة إلى الصالة حيث تحلقت الأفواه مشدوهة حول الشاشة. سألت عما يجري، فلم يجبها أحد، فكررت السؤال، وفي المرة الثالثة التفت إليها ثامر يخبرها بتعرض الإعلامي والصحافي، واثق ممدوح الغضنفري، للقتل. التفتت إلى الشاشة التي كانت تعرض صوراً لرجل حنطي البشرة، بقامة تميل إلى القصر وجبهة عريضة وابتسامة

طفل، يتحدث بصوت حاد مفعم بالحياة وهو يمضي في شوارع الموصل، يحكي للناس بشغف عن رحلته اليوم إلى رحم محبوبته في تجربة ولادة معاكسة.

لمحت مليكة شبح دمعة في زاوية عين أبو ثامر، فعلمت أنها لم تعرف هذا العميد المخضرم جيداً، وأن طأطأة رأسه ومزاجه العكر بعد حادثة أم جواد، لا يشبهان الانكسار الذي يغشاه الآن. لقد قدمت الموصل منذ عام 2003 إلى اليوم، اثنين وخمسين صحفياً، منهم ست صحفيات، قال أبو ثامر، وهو يكتم صراخ التلفاز بضغطة من إصبعه على جهاز التحكم. احنى رأسه ليرشف آخر قطرات الشاي الملتصقة في قعر فنجانه ثم أكمل:

- حمام الدم هذا ما يريد يخلص؟

ثم نهض، تاركاً الصالة وقد تدفقت الدماء في وجهه وتعرّق صدغه ورقبته. نفر عِرقٌ واضح في جبهة أم ثامر التي أخذت تعيد فناجين الشاي إلى الصينية بحركة عصبية، إيذاناً بانتهاء سهرة الليلة باكراً جداً، بينما اعتدلت بسمة في جلستها وهي تقضم أظافرها. ساد الصمت لعدة دقائق تحاشى خلالها الجميع النظر إلى بعضهم، قبل أن يقطعه ثامر بالقول:

- حسب تصنيفات عالمية، تعتبر الموصل ثاني أخطر منطقة على مستوى العالم، بالنسبة لعمل الصحافيين.

- سمعت عن عمليات التهديد والتصفية الجسدية التي يتعرض لها الإعلاميون العراقيون.

نهض يحيى مجيباً، فلحقه ثامر لمعاونة أم ثامر، تبعتهما مليكة تسأل إن كان هذا يعني أن الإعلام العراقي كان أفضل حالاً في فترة نظام صدام حسين. فرك ثامر ذقنه بإبهامه، كان الأكثر خبرة بينهم بحال الإعلام بعد عمله الطويل في متحف الموصل ونشأته على يد والده، أهم أعمدة كلية الإعلام.

- كان إعلام النظام السابق مجرد أصوات متعددة تعبر عن عقل ولسان رجل واحد، صدام. اليوم ولأننا صرنا نملك مساحة أكبر من الحرية، تعددت الأصوات، إنما صارت تتبع الحزب الذي تنتمي إليه، أو الجهة التي تمولها.
- كلها مسألة وقت. يعني، بعض الجهات الإعلامية التي تطلب من موظفيها إعداد أربعة تقارير سلبية مقابل كل تقرير إيجابي يتم نشره أو بثه، هي التي ستقلب الطاولة وتطالب بالعكس تماماً.

«تفاؤل غبي ومو بمحله يا أبو هادي»، صاح أبو ثامر من خلف باب حجرته، فضحكوا جميعاً، ثم ابتعدوا قليلاً بعد اكتشافهم أن أذني أبو ثامر لا تنامان بنومه. توقف ثامر ويحيى ومليكة في منتصف الممر، حين أشار ثامر بأن لديه أمراً مهماً يخبرهما به. بدأ جملته بـ «أم جواد»، فأشار له يحيى ومليكة بأن يخفض صوته وهما يتلفتان يمنة ويسرة ليتأكدا بألا أحد يسمعه.

اسندت مليكة ظهرها إلى الجدار، وذراعاها متعاكستان على خصرها، مواجهةً ليحيى وثامر. تنحنح ثامر، ثم همس ببطء أنه

وجد الخطوة التي ستحل المعضلة، مضيفا أن تصرف أم جواد كان طبيعياً جداً أمام المفاجأة التي حملها لها يحيى ومليكة، وخاصة بالطريقة التي فاتحها بها أبو ثامر، وأن سيدة بسيطة ريفية مثلها لن تحتاج أكثر من كلمات ودودة تألفها وتستوطن قلبها، لتسلم وترضخ. صمت ثامر يراقب أثر فكرته على ابن عمه وزوجته، تاركا لها فرصة أن تترسب وتستقر في عقليهما، ثم ضرب على صدره برفق واقترح أن يقوم هو شخصياً بالمهمة. رمق يحيى وجه مليكة التي أدركت أن النبي يونس استجاب لصلواتها، وأن اقتراح ثامر ما هو إلا بداية الحل لمشكلة أرضهما. وافق يحيى ومليكة على الفور مبتهجين، إذ لم يكن هناك ما يستدعي التفكير، وتعانق يحيى وثامر، دون ان يلحظا وجنتي مليكة اللتين تندتا بالدموع.

انسحب ثامر بخطوات مرهفة نحو غرفته، فيما كان يحيى يقبل جبهة مليكة بعد أن تنبّه إلى ارتعاش جسدها الضئيل. ضم يديها في راحتيه الدافئتين وقرّبهما إلى صدره، ثم شدّها نحوه، هامساً في أذنها أنها موضع القلب الذي ينبض لأجلها فقط وحتى قبل أن يلقاها، واعدا إياها بأن الغد سيكون أجمل بالتأكيد، بين المبلغ الذي ستمدهم به الأرض العراقية، والفرص التي ستجود بها الأرض الفرنسية.

(15)

كرهت مليكة نفسها لعدم إطلاع يحيى على اتفاقها مع الحاج حسين منصور. أدركت ذلك الصباح، متأخرة جداً، ملاءمة ليلة أمس لمفاتحته بالأمر الذي أخذ، مع مرور الوقت، يزداد حجما، كمارد المصباح. خافت أن تفقد السيطرة على هذا العفريت الذي لن يخرج ليحقق أمنياتها الثلاث بالطبع. ابتسمت لفكرة الأمنيات وعلاء الدين، وهي تقلب قنوات التلفاز، إلى أن اختارت تلك التي تنقل تشييع ممدوح الغضنفري. أعادت خصلات شعرها إلى الوراء، ثم احتضنت كوب القهوة، متربعة على إحدى الوسائد، وهي تستمع إلى صوت التلفاز:

«قُتل الإعلامي الذي حمل الموصل بهمومه وإرثه، برصاصة غادرة في الحي الزراعي، شمالي الموصل. انتظره الملايين كعادتهم في برنامجه كل ليلة خميس، ليحدثهم عن تاريخ هذه الأرض الجريحة، وليحيي المنسي منها بشغف صوته. تعودوا أن يتسعيدوا حكايا الأجداد التي تقبع في كل عمود وشارع، على يدي ساحر الكلمات. يبدأ حديثه بـ«عالموصل د نحكي»، وينهيه بوعد

لقاء في الخميس القادم. . . كيف كان له أن يعلم أنه لن يفي بوعده هذه المرة؟»

اعتدلت مليكة في جلستها وتركت فنجان قهوتها يبرد على الطاولة، بينما جاءت أم ثامر التي دخلت مسرعة من الباب الخلفي للمنزل عائدة من عملها، تجلس بجوارها. بعد دقائق، التحقت بهما بسمة التي حملت طاولة الكي معها، وتابعت رش قطع الملابس بالمياه قبل فرشها بالمكواة. لم تعلق أي منهن، بل صمتن يتابعن تغطية مراسم التشييع، مذهولات من الأرقام التي ترد على لسان المذيع:

«واثق الغضنفري هو التاسع من بين الصحافيين الذين قُتلوا في الأشهر الستة الأخيرة، والثالث ضمن مستشاري المحافظ خلال الفترة نفسها، والسادس من مرشحي الانتخابات النيابية المزمع إجراؤها خلال الشهر القادم.»

توالت على الشاشة مشاهد احتجاجات صامتة من صحافيي الموصل وإعلامييها، تتبعها مشاهد الدفن، ثم مقطع أخير لواثق الغضنفري وهو يودع المشاهدين من على منارة الحدباء.

نهضت أم ثامر حاملة حقيبة يدها وبعض الملفات، وهي تشكو آلام ظهرها وركبتيها، ثم مضت إلى غرفتها. كانت بسمة على وشك الانتهاء من عملها، حين سألتها مليكة عن زوجها ثامر، فأجابت أنه سيقابل بعض المهتمين بالتبرع للمتحف حيث يعمل.

استنتجت مليكة أنه قرر زيارة أم جواد اليوم، فحبست أنفاسها وابتسمت، ثم استرجعت، مسدلة الجفنين، صلواتها يوم زيارتها لجامع النبي يونس. لم تستطع مليكة التخلص من صورة الغضنفري ولا من صوته وهو يتحدث عن معشوقته الموصل بكل ذلك الحب، فأرادت أن تودعه على طريقتها الخاصة، بل أن تلقاه، فقررت أن تحدد موعداً مع الحاج حسين ليصحبها إلى منارة الحدباء.

أخرجت ورقة بيضاء تطويها وتثنيها وتكتب على طرف شراعها تاريخ اليوم، فتخلصت مؤقتاً من صوت الغضنفري، وحسمت أمرها بخصوص إخبار يحيى باتفاقها مع الحاج حسين. لكنها بقيت أسيرة صورة ثامر، لا بد وأنه يحدث أم جواد الآن. تخيلت أكثر من سيناريو، فلم تفلح سوى في إخافة نفسها أكثر.

لم يعتد منزل أم جواد المتهالك على استقبال هذا العدد من الرجال، منذ وفاة أبو جواد بالسكتة القلبية، في السادس من ديسمبر عام 2003، اليوم الذي وُجد فيه صدام حسين في الحفرة، عند الثامنة والنصف تماماً، لحظة اعتقال رئيس النظام السابق، في ما سمّي عملية الفجر الأحمر، حيث ألقى الجنود العراقيون بالتعاون مع الجيش الأمريكي، القبض عليه في مزرعة قرب تكريت. كلما سُئلت أم جواد بعدها عن وفاة زوجها، كانت تقول: أخذه الفجر الأحمر. أبو ثامر ويحيى وثامر هم الآن الحشد

الذكوري الوحيد الذي أدخلته أم جواد عتبة منزلها، منذ أكثر من عشر سنوات، في حين لم يمر أي من نهاراتها، من دون النسوة اللاتي يجئن ليلمس أجسادَهن شريطُ قياسها، إبرُها وخيوطها.

أكثر من ذلك، كانت أم جواد بالنسبة إلى بعضهن، ميزاناً لا يُخطئ ومرآة أكثر صدقا من المرآة، إذ تحفظ في ذاكرتها التي لا تخطئ، وبعيداً عن دفترها الصغير ذي الغلاف الأزرق، مقاساتهن، فتخبر فلانة أنها اكتسبت بضع إنشات عند خصرها مثلاً، لترد عليها تلك أن كل ذلك إنما يقع على عاتق زوجها الذي تدفعها مرارة العيش معه وعصبية مزاجه وجفاؤه، إلى الأكل بنهم ودون حساب.

تدير أم جواد حديثها مع النسوة ببراعة، كما تدير الأقمشة على آلة خياطتها، ما أكسبها مع الوقت قلوبهن وحضورهن. يجلسن حوالي الساعة بل أكثر، يتحادثن ويتضاحكن، فتجتمع لديها أخبار الحي والأحياء المجاورة أيضاً، خليط مثير من أسرار البيوت والسياسة واقتصاد البلاد التي يحسبها الرجال موضوع حديث مجالسهم فقط. يجلسن وينتظرن شاي ابنتها رباب المعطر بالهال وقطرات ماء الورد، ممتدحات نَفَسَها الطيب، داعيات لها بالنصيب الصالح، ومؤكدات لها أن برها بوالدتها كل هذه السنين سيضمن لها السعادة والذرية الصالحة. وما أن تخرج رباب حتى يتهامسن باستحالة زواجها، هي ابنة الثلاثين التي بلا حسب أو نسب أو مال يجذب إليها الرجال.

حسب تعليمات أم جواد، اضطر ثامر إلى الانتظار في سيارته، حتى تخرج النسوة من منزلها. جلس يتأمل تفاصيل جدران المنزل، وسقفه الهش المصنوع من الشينكو، تحيط به قطع خشب بالية وأسلاك وأدوات قديمة أشبه بالنفايات. حول المنزل، تمتد أرض واسعة بحشائش غير مشذبة ونخلات متناثرة، بالإضافة إلى شجرتي ليمون ونارنج، ولوزة جانبية مريضة، ونباتات متسلقة من بينها ياسمينة وأصص فل. أما على أطراف السور المنخفض، فقد زُرعت أعشاب عطرية كالريحان والنعناع والبقدونس والرشاد وفرت عطراً بهياً حول المنزل الذي بدا بقذارته وحجمه كالدمل على جسد الأرض، تماماً كما كانت أم جواد وأسرتها بالنسبة لثامر.

بدأ ثامر يتململ بعد مرور ساعتين على انتظاره في السيارة، حتى لمح مجموعة من النسوة يخرجن حاملات قطعا من الأقمشة وأكياسا بلاستيكية ملونة شبه شفافة، تبعتهن بعد دقائق فتاة صغيرة بثوب أصفر فاقع، عليه زهور حمراء كبيرة، وغطاء رأس تظهر منه أغلب خصلات شعرها. ركضت الفتاة واقتربت من النافذة حيث أطل ثامر برأسه، انزلق غطاء شعرها ليطوق رقبتها كشال ذي عقدة كبيرة، بينما أخذت تحرك لسانها وشفتيها تستحضر بعض اللعاب بعد أن جف حلقها. أشارت له بالدخول، فتبعها، أجلسته في الصالة الطويلة قرب جهاز التلفزيون المغطاة شاشته بقطعة قماش بيضاء مطرزة. تربع ثامر، فوقفت الصغيرة أمامه وابتسمت قائلة بصوت ناعم طفولي:

ـ اسمي رقية

احمرت وجنتاها ومسحت أصابعها الصغيرة في طرف ثوبها، ثم تركت الصالة مسرعة عندما دخلت أختها رباب، فضربت كتفها بساق والدتها التي دخلت للتو معتذرة من ثامر الذي نهض محيياً.

جلست أم جواد ورباب أمام ثامر الذي أخذ يرتشف قطرات من الشاي الساخن. تعلقت عينا أم جواد بوجهه إذ فهمت أن لقدومه علاقة بأمر العميد الذي جاء بخصوص الأرض منذ بضعة أيام، لكنها فضلت أن لا تثير هي الموضوع. أخبرته بعد أن رحبت به أن ابنها سعد على وشك الوصول، إن كان يُفضل مخاطبة رجل البيت، فابتسم وهز رأسه مقررا أن يستغل وجود عضو جديد في جلستهم، لعل لسعد موقفاً يفيده. سألها باستغراب عن سبب تسميتها بأم جواد إن كان أكبر أبنائها هو سعد، فطأطأت رأسها النحيف الأسمر، ثم أجابته باقتضاب أن بكرها يدعى جواد بالفعل. «بس. . . اختفى»، قاطعت رباب صمتها وأكملت موضحة، «هو من المفقودين في الحرب العراقية الإيرانية. زجرت أم جواد ابنتها بنظرة غاضبة، فخرجت على خجل. قدمت أم جواد كوباً آخر من الشاي لثامر الذي شكرها مكتفياً بما شربه، بينما أكدت له أن جواد سيعود، وأنها تنتظره وستنتظره حتى يأتي ذلك اليوم، فتزوجه من أجمل الفتيات وتبني له غرفة فاخرة على هذه الأرض التي تركها لهم أبوه.

ـ شلون حصل المرحوم أبو جواد على هاي الأرض؟

سأل ثامر، فتأكدت شكوك أم جواد. قطبت جبينها ونهضت واقفة، فتخيلها ثامر تحضر سكين المطبخ وتطرده، كما حدثه يحيى ومليكة. تساءل إن كان استعجل ذكر الأرض في حديثه، إلا أن سعداً دخل مسرعاً إلى الصالة، ليصافح ثامر ويعتذر عن تأخيره، فجلست أم جواد منكمشة في زاوية الصالة، تراقب عن بعد ثامر بنظراتها المخيفة.

كان سعد شاباً أسمر نحيفا، بعظمتي خدين بارزتين، وعينين سوداوين واسعتين، وأنف رفيع، وأسنان شديدة البياض أكبر حجماً من فمه، قال له بلطف إن كان يستطيع مساعدته، فسأله ثامر عن مصدر رزقه. أجابه سعد بأنه يعتاش وأسرته من بيع الخضار في السوق كل صباح، يشتريها من بعض المزارعين الذين كانوا على علاقة طيبة بوالده المرحوم، كما أن والدته وأخته تعملان في خياطة الأثواب للسيدات، مضيفا أن تجارة المأكل والملبس، بحمد الله، لا تبور أبداً.

تململ ثامر في جلسته، حائراً، بعد أن أصبح وجوده محل استفهام من أم جواد وولدها. استعجل فكرر سؤاله لسعد عن طريقة حصول والده المرحوم على هذه الأرض، وخاصة أنهم من سكان البصرة لا الموصل. أطل الغضب من وجه سعد هذه المرة، فصبغت بشرته حمرةٌ قانية، فكرر بدوره سؤاله لثامر حول ما يمكنه مساعدته به.

نهضت أم جواد حتى قبل أن يتدارك ثامر الموقف، وأشارت له بأن يخرج من بيتها. أخبرته وهو منحنٍ يرتدي حذاءه، أن الأرض ملك لهم ورثوها عن المرحوم أبو جواد، وأنها لن تتحدث مع أحد منهم بأمر الأرض، ولن تستقبلهم ثانية في منزلها.

(16)

تضاءلت كل محاولات مليكة في إيهام نفسها بأن الخلاص يكمن في الجامع الكبير النوري، بالضبط كما تصاغرت ملامح الموصل من حيث كانت تقف ذلك الصباح، في شرفة منارة الحدباء. أعادت بعثرة وترتيب المعلومات التي عاد بها ثامر إلى زوجها يحيى وإليها من أم جواد، عشرات المرات منذ يوم أمس، دون جدوى. ومع أنها لم تتوقع سهولة الأمر بعدما حدث لها ويحيى وأبو ثامر في أول لقاء لهم بأم جواد، إلا أن عجزها وحيرتها أشعلا في خلايا عقلها حرائق أخرى.

قبل أن ترتقي درجات سلم المنارة الضيق، التقطت مليكة بعض الصور لهذه الحدباء الفاتنة ذات القوام الممشوق الذي يفوق طوله خمسين متراً، والخصر النحيل الذي تزينه سبعة أقسام مختلفة من الزخارف تفصل ما بينها أحزمة أنيقة. صبية هي لا تزال، حتى بعد أن تعدى عمرها ثمانمائة عام، ورغم الشقوق والتصدعات التي تركتها السنين على بشرتها المصنوعة بعناية من الطابوق والآجر. تساءلت مليكة عما كان سيكون عليه مصير هذه الآسرة للقلوب، لو أنها كسيت ببشرة من المرمر، كما هو الحال في أغلب البناء

الموصلي. هل كانت ستعمر كل هذا العمر المديد، وهل كانت لتصمد في وجه أنياب الرياح العاصفة حين تقسو؟ أو هل كانت لتبقى واقفة بشموخ أعوج، والأرض تباغتها بهزة تفكك بها أوصالها بعد أن شاخت واهترأت؟

أخبرها حسين منصور بصوته الجهوري الرخيم الذي لا يقاطعه سوى صوت تهاوي حبات الكهرمان في خيط مسبحته، أن المنارة تتفرد بسلّمين، أحدهما للصعود والآخر للنزول، بحيث لا يمكن لشخص يصعد المنارة أن يصادف أو يرى من يهبط منها. تلك كانت سابقة في عهد بنائها، كما كان ارتفاعها الشاهق وطريقة بنائها، وتصميمها على شكل أسطوانة. لف حسين منصور مسبحته بعفوية حول إبهامه وسبابته، ثم بحث جيداً في جيبه. أخرج محفظته وبعناية فرد ورقة نقدية خضراء من فئة العشرة آلاف دينار عراقي، وأشار بإصبعه، فاقتربت مليكة وأحنت رأسها لترى رسماً جميلاً لمنارة الحدباء. أخذ يعدد لها مواقع المقاهي والمحال التجارية التي تحمل اسم الحدباء في الموصل، إضافة إلى جريدة الحدباء، وقناة الحدباء الأرضية، وكلية الحدباء، بينما كان كل ما استطاعت مليكة التفكير فيه هو قيمة الحدباء بعد أن صارت ورقة عشرة آلاف دينار، لا تعادل عشرة دولارات أمريكية حتى.

أخذا يطوفان زوايا الجامع، عبرا أعمدته التي تحمل على عواتقها البيضاء أقواساً أنيقة نقلتهما إلى ساحة الجامع التي تتضمن ما يشبه السقف الذي يظلل موضع السقاية، وحدائق صغيرة مشذبة

على الطرفين مع بعض النخلات الموزعة بعفوية جميلة. سألت مليكة عن خطر انهيار الحدباء، فتهرب حسين من الإجابة وحدثها عن زراعة الورد الجوري المنتشرة أصصه في بساتين الجامع، وعن حسين باشا الجليلي الذي بدأ زراعة هذه الزهور كنوع من العرفان بالجميل، بعد أن التجأ أهالي الموصل إلى الجامع بصلواتهم خوفاً من الطاعون فاستجاب الله لهم، قبل ما يقارب ثمانية قرون. هكذا اشتهرت هذه المنطقة التي سميت بمحلة الجامع الكبير تيمناً به، بتجارة ماء الورد ودهن الورد الجوري.

خارج أسوار الجامع، تكومت جثث الأكياس البلاستيكية السوداء وبقايا الطعام والقشور هامدة، تنفث حولها رائحتها الكريهة لتغذي الذباب وبرك المياه الملوثة المتجمعة تحتها، ولتصنع مرة أخرى مفارقة واضحة في عقل مليكة بين ما يُقال وما ترى، وبين ما كان يوماً وما يعيش واقعاً اليوم. كررت سؤالها عن حال المنارة بإلحاح، فعاد حسين يتهرب بسرد تاريخ إصلاحها وصيانتها. بدأ بباني الجامع والمنارة نور الدين محمود بن عماد الدين الزنكي، وصولاً إلى محاولة صيانتها في عهد الملك فيصل الأول في الثلاثينيات، ومرة أخرى على يد شركة إيطالية عام ٢٠٠٨، ثم بقصة كفالة شهبندر التجار عبد الباقي جلبي الشبخون لها عام ١٩١٨، منعاً لهدمها بعد أن أثرت فيها الهزات الأرضية والمياه الجوفية المتجمعة بفعل سد الموصل، ووقع الطائرات الحربية البريطانية على جسدها الهزيل المنهك.

منارة حدباء، رددت مليكة بصوت مسموع، بعد أن اتجهت نحو شرفة المنارة، فيما وقف حسين منصور في الأسفل ينتظرها لاستكمال الجولة. نظرت نحو الأفق حيث يبدو منزل أبو ثامر بلا هوية في زحمة بيوت الموصل وشوارعها، هناك حيث ينتظرها يحيى وحقائبها وقواربها الورقية بالتواريخ الموشومة عليها كحيوانات السباق. كان كل ما حولها يشبه قصص ألف ليلة وليلة، كلما قصدت شارعاً تعثرت بحكاية.

انحنت مليكة تتأمل حدائق الجامع الصغيرة، وعاودتها كلمات ثامر عن أم جواد. اقترب ظل حسين منها، ثم صوته، لقد قلق عندما تأخرت، وزاد قلقه عندما رآها منحنية على شرفة المنارة إذ بدا له أنها ستسقط، فعجل بالصعود. استدارت مليكة بحذر لتواجهه بعد أن قفزت إلى ذاكرتها فجأة منارة جامع محمد علي باشا في القاهرة. كانت تبحث في ذاكرتها وما درسته عن حل لانحناء منارة الجامع الكبير، وتتمنى لو أنها تستطيع استبدال طابوقها هذا بيديها، فتعيد تشكيلها بنفسها من جديد. أخبرته أن إحدى جهتي تلك المنارة في القاهرة تتعرض للشمس، أكثر من الأخرى، وأنه مع مرور الوقت وبسبب الرطوبة في الجهة التي تحظى بالظل لفترة أطول، اختلف حجم الطابوق عنها في الجهة المشمسة، مما تسبب بميلان المنارة أيضاً. ضحكت مليكة مفسرة حديثها: نقدر نقول هي حاجة دايرة كيما زهرة عباد الشمس. تعرفها؟ نظر حسين إليها ذاهلا، أطرق برأسه وطال صمته، ابتسم أخيراً وتمتم بهدوء: إي... أعرفها.

حدث حسين منصور مليكة، فيما كانا يغادران الجامع، عن طفولته التي ترك بين زهرات عباد الشمس، عن ضحكاته التي يجزم بأنها ما زالت عالقة في بتلاتها الذهبية الوفية أبداً للضياء، عن والده، الرجل الصارم إلا على الأرض، والذي تتبدل تعابير قسوته حناناً لا يخص به كائناً سوى هذه الأزهار. أخبرها أن أزهار عباد الشمس تلك ولا بد، تشتاق قبضة والده على أعناقها الخضراء، وتحفظ صوت غنائه الذي ينساب مع الماء.

لم ينظر حسين منصور إلى المنارة بهذا القرب من قبل، ولم يبصر فيها هذه المعاني حتى اليوم، كما ولم يتوقع رؤية أزهار عباد الشمس تتجسد بهذا الشكل الموصلي الأنيق، وسط طابوق وآجر. لذا فهو قد تحدث إلى مليكة كما لم يتحدث مع أحد من قبل، باستثناء دجلة ربما. رمق مليكة بامتنان، ثم سبقها يهبط درجات السلم، بعد أن تأخرت عنه لتودّع شبح الغضنفري حيث رأته مودعاً الموصل التي أحبّ.

بحثت مليكة في حقيبتها الجلدية الشبيهة بمتاهة عظيمة تبتلع كل ما يُلقى في معدتها الجوفاء، ثم نزعت الحقيبة من على كتفها ووضعتها أرضاً ليسهل عليها التنقيب. غاصت ذراعاها حتى المرفقين ورأسها في فوهة الحقيبة، لتخرج من بعدها بظرفٍ أبيض مطوي قدمته إلى حسين. بدا حسين مستاءً بعد أن فتحه ووجد فيه مبلغاً من المال. مد يده ليعيد الظرف، فأخذت مليكة تقنعه بقبوله،

متجنبة استعادة الظرف. انتبهت إلى صوت هاتفها يرن، فعادت تبحث في الحقيبة الملقاة أرضاً، كان هذا سابع اتصال ليحيى.

أنهت مليكة المكالمة وأغلقت الهاتف بحركة سريعة غير مدروسة. ربتت على جبينها الدافئ ووجنتيها المحمرتين بعد أن أحست بالدماء تتدفق لتخنق قلبها وتُسكت نبضاته. لاحظ حسين تبدل حالها بعد المكالمة، كانت يده لا تزال تحتفظ بالظرف. لملمت مليكة أشلاءها المتناثرة على عجل، وابتعدت ملوحة لحسين تشكره. رجته أن يكون لقاؤهما القادم في أرضه حيث بتلات الضياء الذهبية، ودون أن تترك له فرصة الرد، اختفت على زاوية الشارع، ثم في سيارة أجرة ستسرع بها إلى أقرب الأسواق من منزل أبو ثامر. لم تجد أفضل من التحجج بالتسوق، لتبرر ليحيى اختفاءها اليوم وعدم ردها على مكالماته. ستغلق هاتفها لتهدأ قليلاً، ثم ستسرع لتختار بعض البضائع تلقمها للأكياس البلاستيكية.

وقف حسين حائراً متململاً، أدخل الظرف في جيبه، ثم أتبعه بمسبحته. أخرج سيجارته وولاعته ووقف يتأمل المارة في الشارع المقابل للجامع. ظللت غيوم متفرقة وجه السماء، حاجبة أشعة الشمس في بقع دون أخرى. جاء الدفء مختلطاً بالبرد، كما عندما يخترق الربيع شتاء الموصل كل عام، مقبلا بخطى ناعمة كمن يمشي على طين، ومحتلا بروعة خضرته ودفئه النديّ فصل البرودة. هذه المرة، كان حسين متأكداً أنه سيلقى مليكة مجدداً،

بل وعما قريب، على الأقل ليعيد إليها المال. تمنى ألا تفاتحه في أمر الأرض وعباد الشمس مرة أخرى، وإن أحسّ بالفضول حيال المكالمة التي بدّلت من حالها بهذا الشكل الغريب.

قرر أنه سيقطع اليوم شوارع مختلفة، في طريق عودته إلى جامع النبي يونس. أسرعت خطاه المتتابعة تقطع الشوارع بحذر، ثم الأرصفة. يبطئ ويسرع، ثم يراوح بينهما دون أن يشغله أي مما حوله.

(17)

هوت سكين أبو ثامر على ذيل السمكة، فشقت جزءاً من الصحيفة التي فُرشت تحتها.

ـ أحسن!

حدث نفسه شامتاً وقد أعجبه منظر وجوه المسؤولين المجتمعين في صورة الصفحة وقد شوهتها ضربات النصل الحادة. طار ذيل السمكة ثم حط بعيداً حيث اقتربت قطة طردها صراخ أبو ثامر وقطعة من الطماطم الفاسدة قذفها في اتجاهها غاضباً.

فصل رأس السمكة جاحظة العينين، وضع جسدها في قدر كبيرة، بعد أن قشرها جيداً ونظفها، ثم وضع الرأس في طبق آخر. تناول سمكة أخرى، فهوت سكينه من جديد. طار الذيل إلى جهة مختلفة، أبعد هذه المرة، فقفزت عليه القطة تمزقه بأظافرها. تعوّد أبو ثامر فيما مضى أن يلجأ إلى صيد السمك كلما استعصى عليه أمر، أو واجه معضلة لا حل واضح لها. كان يحترف اختيار الطعم المناسب لكل نوع من السمك، كما كان يختار خيط الصنارة بعناية من بين مجموعة البكرات التي يحتفظ بها. مع الوقت، أصبح له أصحاب يرافقونه بعد انتهاء محاضرات الجامعة، إلى ضفة نهر

دجلة، بالإضافة إلى شلة من الصداقات الصامتة التي تشاركه الجلوس لساعات طويلة، وهي تواجه أفقا تشرق من حدوده البعيدة أطراف النخيل. انفصل أبو ثامر عن علاقته بالصيد مع ارتباطه بالأسرة ومسؤوليات عمادة الكلية. استبدل ساعات الصبر الخرساء، بجلسات أحاديث التحليل السياسي مع صحبه من المثقفين المضطهدين، كما استبدل عذوبة زرقة دجلة بقطع السكر في قهوة تلك الجلسات. إلا أن عادة تنظيف وطبخ السمك الذي يعدّه بعناية لم تغادره، كما بقيت المشاكل التي استمرت تزوره بين فينة وأخرى.

وبرغم أن أبو ثامر لم يتقبل الأسباب التي دعت أخاه أبو يحيى وزوجته إلى اختيار الغربة وطناً منذ سنين طويلة، وبرغم الاستياء الذي يتركه كل يوم مضى ويمضي دون رغبة منهما في زيارته أو في زيارة العراق، إلا أنه وجد نفسه اليوم مدافعاً شرساً عن رغبة ابن أخيه. منذ سنين، كان أبو ثامر قد ضيع أثر الأرض بضياع أثر أخيه عليها وعلى حياته. تجاهل كل ما قد يفتح الباب على الجراح الغاضبة العنيدة، حتى كاد أن ينساها بالفعل. حين كان يهاجم المتخاذلين عن أوطانهم، الخانعين في أراضي أوروبا والأميركتين بدلال، لم يكن ليتذكر حتى أن أخاه وأعضاء أسرته كانوا من ضمنهم. لقد أسعد أبو ثامر اختيار ابن أخيه العراق، وطنه الأصلي، ليكون أولى محطاته مع عروسه الجديدة. إلى أن المرة الأولى وربما الأخيرة التي سوف يلتقي فيها ابن أخيه يحيى. هكذا

قرر أبو ثامر أن يكون جزءاً من طقوس الرحيل والانسلاخ عن الهوية البعيدة، لعله يخلد في ذاكرة ابن أخيه وزوجته، كلما استرجعا تفاصيل هذا الحلم.

بعد أن علم من ثامر ما حدث في زيارته الأخيرة إلى أم جواد، استبدل أبو ثامر ردة فعله الأولى، بأخرى متروية، هادئة. أراد أن يطرق باب القانون بعد أن يئس من الحديث مع أم جواد بلغة المنطق، فقرر أن يرفع شكوى عليها. في حقيبته الجلدية، حمل أبو ثامر أوراق ملكية الأرض وهوية أصحابها، بالإضافة إلى جوازات سفرهم العراقية، وتوكيل من والدي يحيى إلى ابنهما وزوجته بالتصرّف، وغادر منذ الصباح الباكر متوجهاً للقاء زميله السابق، مسؤول البلدية الحالي، وربما المرشح البرلماني القادم، أبو وليد.

- يعني ماكانش فيه فايدة حتى لو اشتكينا وطالبنا بحقنا في الأرض بالقانون؟

تعكرت صورة أبو ثامر المتجمدة على صفحة المياه في الدلو حيث ينظف الأسماك، ثم جلست قبالة أبو ثامر، واضعة يديها على ركبتيها، ومقربة رقبتها ككلب وفيّ. كان يحيى وثامر الأعرف منها بمثل هذه القضايا، خاصة في مكان كالعراق، لذا فقد استسلما وأغلقا هذا الباب، خاصة بعد التأكيد الذي عاد به أبو ثامر لمخاوفهما وشكوكهما. أعاد أبو ثامر عليها جواب أبو وليد الذي كان قد وعد بمساعدتهم في استرجاع الأرض، إن كان باستطاعتهم

الانتظار لعدة سنوات قادمة. كان بالطبع جواباً تهكمياً، وفي الوقت ذاته رداً مخلصاً بعدم جدوى سلوك هذا الطريق.

استدارت مليكة تراقب القطة تنهش ذيل السمكة، بينما هم أبو ثامر بالنهوض عندما خرج يحيى وثامر إلى الحديقة. «نهدد أم جواد.. شنو رأيكم»؟ اقترح يحيى بشيء من السخرية، ففوجئ بنظرات الثلاثة تتجه نحوه بكل جدية وإعجاب. صمت الجميع قبل أن يستبعدوا الفكرة التي بدت سائغة لكل منهم، دون أن يتمكن أحدهم من البوح جهراً بذلك.

ـ إحنا نحتاج أحداً يحكي بلغتها.

فهم الجميع إلام كان أبو ثامر يرمي باقتراحه ذاك. لا بد أن يوكلوا مهمة إقناع أم جواد إلى شخص يشبهها، فيجيد فهمها وتستوعب منطقه. أخرج أبو ثامر هاتفه من جيبه، ارتسم ظل ابتسامة رضا على وجهه، بينما تحركت أصابعه العريضة بسلاسة على أزرار الهاتف.

ـ ألو.. أبو منصور؟

خرج هادي إلى الحديقة تتبعه صيحات والدته بسمة من داخل المنزل. لم يعبأ بها واستمر قافزاً بمرح نحو القطة. أمسك بغصن شجرة من على الأرض، ثم أخذ قبضة من التراب وخضب بها وجنتيه وجبهته. أطلق صيحات هندي أحمر، فأسرع ثامر يسكته، حمله وأسرع به نحو المنزل على أثر صرخات احتجاجه التي

ابعدت أبو ثامر، بعد أن غطى أذنه الخالية من الهاتف دون فائدة.

أحضرت أم ثامر شالاً صوفياً ولفته على كتفي مليكة التي قفزت مذعورة، مدركة أنها عادت تغوص في دوامات أفكارها، كما تفعل زوارقها الموشومة بالأيام. لم تكن قد أحست بالبرد الذي تسلل كلص ماهر إلى عظامها، حتى تلفعت بالدفء. شكرت أم ثامر بخجل، ثم التفتت حولها، فلم يبدُ من أثر واضح لأبو ثامر سوى صوته ينسل متقطعاً من خلال أغصان الظل السوداء، قرب سور الحديقة. ارتفع صوتا هادي وبسمة من داخل المنزل، فرفعت مليكة معصمها تلقي نظرة سريعة على الساعة، كان وقت نوم هادي قد مضى منذ ساعة أو أكثر، أدركت أن الوقت قد انساب اليوم من بين أصابع الجميع كساعة رملية معطلة.

جلس يحيى وثامر صامتين ينتظران انتهاء أبو ثامر من مكالمته. حاولا في أول الأمر أن يحزرا من يكون أبو منصور، ولم يخطر ببالهما أن يكون هو نفسه ياسين، السائق الذي صحبهما من المطار ورافقهما في أول زيارة إلى الأرض وأم جواد.

تأملت مليكة أنفاس النسمات الخجولة من حولها. كان ربيع الموصل بلا شك مختلفاً عن ربيع فرنسا. تمنت لو أنها زارت الجزائر في غير فصل الصيف القائظ، فلربما وجدتها ودودة أكثر في نيسان. أخبرها حجي حسين ذات يوم أن الموصل مختلفة، بل إنها بلا شبيه، إذ ومن دون بقاع الأرض، يزورها الربيع مرتين. تذكرت عندها أحاديث ريم شقيقة ثامر في باريس، أول تعارفهما،

عن مدينتها «أم الربيعين»، حين كانت تكرر مازحة: إذا كانت مصر أم الدنيا فالموصل أم الربيعين

اقترب أبو ثامر ضاحكاً. نظر في الوجوه المترقبة، المنتظرة إشارة منه لتنفرج. كانوا جميعا يدركون أن الوقت خصم لا يجب إغفاله، حتى إن وقعه أكثر تأثيراً من موقف أم جواد الرافض. ضاعت أسابيع ثلاثة حتى، دون أن يصل يحيى ومليكة إلى أي نتيجة، ولم يكن بمقدورهما هدر مثل هذه المدة هنا.

استرسل أبو ثامر يروي تفاصيل حديثه مع ياسين. كانت كل كلمة تخرج منه، تجر معها الأمل مسافات. استبشر الثلاثة، لمعت في عيني مليكة دمعة فرح كتمتها بصعوبة بين جفنيها. وعد ياسين، أو أبو منصور كما كان أبو ثامر يشير إليه ليلتها، بالمساعدة. أخبر أبو ثامر أن الأرض لا شك ستكون من نصيبهم ثانية وفي أقرب فرصة، وأنه يعرف جيداً الرجل المناسب لهذه المهمة.

على وعد ياسين، اتفق الأربعة، أبو ثامر وثامر ويحيى ومليكة، أن يلتقوا بالرجل الذي رشحه. حتى ذلك الحين، احتفظ كل منهم بسعادته مكتومة كبوحٍ بين عاشقَين، بينما أطلقت مليكة حلمها من لجامه فرساً أصيلة تحملها إلى حيث تشاء.

(18)

كان يكفي أن يلتقي بياسين، حتى يعلم أن محطة جديدة تنتظره، أو درباً تقسمها خطوط حديدية تفرض نفسها على مجريات حياته. لم يعرف حسين إن كان ذلك بسبب فارق السن بينهما، أم الاختلاف الشاسع بين شخصيتيهما، وقلة أحاديثهما ولقاءاتهما حيث نشآ بعيدين، وفي عالمين مختلفين. إلا أنه أدرك في مساحة عميقة من ذاته لا يصلها أحد، أن في الأمر نوعا أنيقا مبطنا من أنواع الغيرة.

أما علاء، فقد كان أخاً في ثوب صديق. يتشابه حسين وعلاء فتتحد روحاهما حتى لا يعود هناك من سبب للتبرير أو الشرح بينهما. ظهر علاء ببزته العسكرية، في الوقت المناسب، ليكون عطية الله بعد أن فقد حسين زوجته دجلة، ثم فقد أهلها، وخاصة جابر من بعدها. ظن حسين، ولمدة طويلة، استحالة أن يحل أحد محل جابر الذي صار أخاً له منذ صبيحة استلامه مهمته الأولى في الجامع، وحتى بعد كل تلك السنين التي تقاسما فيها العمل والأحلام والأحاديث العابرة. تم تعيين علاء في نقطة السيطرة القريبة من جامع النبي يونس، حين كان لم يزل عريساً جديداً ينتظر

استقبال لقب الأبوة، بعد أسابيع قصيرة. هنأه الجميع على هذا الشرف بمجاورة المقام الذي سيغدق عليه ولا بد، وزوجته ووليده، البركات والعطايا دون حدود.

كان علاء وحيد والديه، المَرضيّ الذي أجل ارتباطه بمن أحب حتى جاوز الثلاثين، و«دفن شبابه» على حد تعبير أهل حيّه، لرعاية والديه. توفي والده بعد غيبوبة طويلة ليرحل معه نصف العبء من على كتفيه، ويبقى في نهاية كل شهر نصف مرتبه. قرر علاء حينها أن الوقت قد حان ليباشر تكوين أسرته الخاصة، وهذا بالفعل ما كان. لم يشهد ذلك الحي البسيط من أحياء منطقة الميدان مثل يوم عرسه. تشارك الجميع، حتى مطران كنيستهم، في تكاليف المسكن والجهاز، بينما اختارت الخالة حني، والدة علاء، فستان العروس عاجي اللون، مزيناً بالدانتيل وقطع اللؤلؤ، وأقسمت بالعذراء التي وهبتها هذا الابن البار، أن تشتريه من حر مالها الذي ادخرت لمصاريف جنازتها.

كان حسين إلى جوار علاء عند مولد طفله الأول. أَذّن في أُذُن الصبي، ثم وبعدها بسنتين، في أذن أخته ميلاد، ثم وبعدها بسنتين، في أذن أخته ليندا. لقد حضر حفلي تعميدهما وأعياد ميلادهما، ثم محاولات المصالحة بين علاء وزوجته، حتى يوم طلاقه. حضر علاء بعض الزيارات للأرض التي حلم حسين بامتلاكها، بالإضافة إلى أزماته مع كوابيس الحرب، وخلافه مع

أهل دجلة. كان يكفيه ائتمان حسين له على سر مبلغ الأرض الذي كان يجمعه خلسة، حتى عن أعين المقربين إليه.

منذ لقائه الأخير بمليكة في الجامع النوري الكبير قبل أسبوع، وحسين منصور في مرحلة من التنقيب المضني والبحث. يقلب وريقات أرشيف ذكرياته المهترئ لعله يجد الأرض التي يوليها أول خطوة جديدة، بعد أن ضاعت آثار خطواته الماضية بضياع الحلم. أعاد تفكيك علاقته بكل من تقاطع مع خطوط حياته، فبدأ بياسين، ثم جابر، وصولاً إلى علاء، لكنه استغرب أن تقفز مليكة الى عقله، وسط هذا الحشد الذي لا تنتمي إليه. شعر بفضول كبير تجاه ما يربك مليكة إذ كان واضحاً أنها تخفي سراً ما. لم يجد سبباً يبرر هوسها بالمساجد، ولم يعرف ما الذي يدفع شابة فرنسية، وإن ادعت العروبة، إلى المجيء هنا، وإن كان شكه في أنها جاسوسة أو عميلة، ضرب من الصبيانية أو السخف.

- حجي حسين؟

وقف جابر مبتسماً أمام حسين الذي بدا منفصلاً تماماً عن كل ما له علاقة بالواقع. ابتسم جابركما كانت دجلة تبتسم. كانا يشتركان بغمازة في الخد الأيمن، وحاجبين رفيعين يزدادان تقوساً عند الضحك بحيث لا يعود يظهر إن كانا يبكيان أو يضحكان.

وقف جابر كما لو أنه خرج للتو من ذاكرة حسين وعقله، من ذلك الصندوق الذي فتح علبته قبل ساعات قصيرة ونفض عنه

الغبار، ثم حياه بحرارة استغربها جابر. سأله عن مروة، فطمأنه جابر، ثم أسرع يقطع حديثه ليخبره بضرورة حضوره الآن إلى منزلهم.

تبع حسين جابر بين الأحياء والأزقة. سمع جابر دقات قلبه تنتفض هلعاً كلما اقتربا من الحي المقصود. نبت لساقيه جذور تنغرس بين كل خطوة وأخرى لتثقل عليه حركته. التفت خلفه ليتأكد أن حسين يتبعه، وفي كل مرة كان ينجح جاهداً في إخفاء تعابير قلقه وحزنه.

توقف جابر فجأة أمام منزل في الشارع الخلفي لمنزلهم. كان بناءً ينتظر دفعة من ريح موصلية باردة ليتهاوى، جدرانه أشبه بعظام نخرة، وسوره بحشائش مهملة يابسة. كان كل شيء فيه يشبه جثة تُركت لتتعفن.

ـ الموضوع عن دجلة.

صمت حسين. كانت المرة الأولى التي يتحادثان فيها عن دجلة، بل وكانت المرة الأولى التي لا يُعقب جابر فيها اسم دجلة بـ «رحمها الله». أخرج حسين سيجارة من جيبه يعيد لف طرفها بتوتر. دفع الباب الحديدي يريد الدخول، فأمسك جابر بذراعه يستوقفه. أخبره أن في الدار عجوزا تحتضر ولن تحتمل دخان سيجارته، ثم انشغل ببعض المكالمات والرسائل على هاتفه، حتى أطفأ حسين ما تبقى من سيجارته.

دخل، فتبعه حسين عبر الحديقة الصغيرة إلى باب المنزل، طرقه ففتحت سيدة ستينية ذات قامة وملامح رجولية تغطيها عباءة سوداء تزمها بأصابع يمناها قرب ذقنها الموشوم بخط أخضر باهت. رحبت بهما بعد أن عرفها جابر إلى حسين، مشيراً إليه بـ «زوج دجلة»، مما أثار قلقه من جديد.

أدخلتهما السيدة التي لم تُعَرف بنفسها إلى غرفة سيئة التهوئة، تختبئ خلف ظلمات ممر ضيق، ثم خرجت. جلس جابر على كرسي قريب، تاركاً الأبعد لحسين. تحرك غطاء صوفي ثقيل على السرير أمامهما، أبعدت تسعينية ضامرة الملامح طرف الغطاء عن وجهها وكفيها، صاحت بالسيدة الستينية فأقبلت الأخيرة راكضة، أشعلت الصوبة فانتشر بعض الدفء وسط الرطوبة والرائحة الكريهة. حاول حسين المحافظة على هدوء أنفاسه، بينما كان جابر يُعرف السيدة إليه، لافظاً اسمه بصوت مرتفع ونبرة حادة. هزت العجوز رأسها، ثم دققت النظر في وجه حسين، حيته واعتذرت عن عدم قدرتها على الجلوس، أو تقديم ما يمكنهما تناوله. كانت الكلمات تخرج من بين شفتيها ولثتها الخالية من الأسنان، مشوّهة تستعصي على الفهم، ولم يلحظ حسين الكأس الزجاجي الذي يغوص في محلوله الحليبي الشفَّاف طقم أسنانها، على رف مجاور، إلا متأخراً.

أخبرها جابر بأنه أحضر لها حسين زوج المرحومة دجلة كما

طلبت. ازدادت حيرة حسين ونظر إليها بتوجس، خاصة بعد أن أشارت إلى جابر بمغادرة الغرفة. اقترب حسين ليجلس حيث كان يجلس جابر، فمالت العجوز برأسها على طرف الوسادة وبدأت حديثها بالاعتذار له. كانت عيناها صغيرتين تلمعان دون أن يبدو فيهما شيء سوى البياض، تطقطق بشفتيها الجافتين بالتواؤم مع صوت طقطقة حبيبات مسبحته.

سألت حسين إن كان يعلم السبب الذي دفع بالنبي يونس إلى بطن حوت ضخم. لم تكن تنتظر رده إذ أكملت قائلة إن إثمه وخطأه كانا السبب، وليست العاصفة التي أدت إلى ارتفاع الموج الحانق والخطر الذي هدد المركب. أدرك من كانوا مع يونس الوزر الذي ارتكبه، فألقوه ليتخلصوا منه فيكتب الله لهم النجاة. أما القرعة التي أشارت إلى اسمه ثلاث مرات متتالية فما كانت إلا اقتراحاً يريح ضمائرهم فلا يبدو أنهم يرتكبون جريمة بحق نبي الله، إلى أن تحولت إلى إشارة من السماء.

لم تترك العجوز لحسين فرصة الاعتراض، واتضح له أنها ترى في نفسها يونس المذنب، وأنها تريد النجاة بنفسها وقد اقترب موعد لقائها بعزرائيل. آمنت العجوز أن عليها، لتتخلص من إثمها، أن تلقي بنفسها في معدة الحوت فتتطهر. كان الحوت في حكايتها بوح الحقيقة المسكوت عنها منذ سنين طويلة. دمعت عيناها، فأقسم عليها حسين أن تُخبره بما تعرف عن دجلة، وأنه سوف يسامحها مهما كانت الحقيقة. تمتمت كأنها تتأهب للعودة

إلى أكثر من عشرين عاماً مضت، حيث كان كبد العراق يُكوى بنيران الحرب والموت، وحيث دجلة التي تركتها الأيام شبحاً يلوك الصبر والانتظار.

رحل حسين عن دجلة ولم تعلم إن كان بعد هذا الرحيل من عودة. أخذته الحرب كما أخذت جميع الرجال. بقيت النسوة تربي أطفالهن وقوداً لحرب أخرى، ولم يكن رحم دجلة يطرح الفاكهة. دجلة أرض موات، قالت لها طبيبة أخذتها إليها عجوز نصحتها في ما بعد، أن تكتم الأمر.

تذكر حسين والدته التي كانت تحكي له دوماً عن أرض العراق السوداء، تلك التربة التي لا تكاد ترمي بها البذرة، حتى تستظل بفيئها بعد أيام. «المرأة مثل الأرض ابني»، كانت أم حسين تقول، تلمح إلى دجلة وإليه فيخبرها أن العقم منه هو. تهز رأسها بحزن وتضرب فخذيها بكفيها غاضبة تارة، أو تعض على طرف سبابتها وتندب تارة أخرى.

ـ ما عندي حظ بأولادي . . ليش ما أعرف حظي المصخم.

تنهدت العجوز وأكملت تخبره أنها قدمت إلى دجلة في أحد تلك الأيام، بخبر عن يتيمة توفي كل أهلها بقذيفة. «بنية كوردية مثل فلقة القمر»، عقبت العجوز، قبل أن تُكمل أن دجلة سألتها بشغف عن الطفلة وأسرتها، كما أنها احتفظت بصورة لها بعد أن قبلتها واحتضنتها على صدرها، وطلبت من العجوز أن تهيئ لها لقاء قريبا بمن كان يقوم على رعاية الطفلة آنذاك.

ـ كانت تريد أن تتبناها؟

سأل حسين، فهزت العجوز رأسها بالإيجاب. شحب وجه حسين وذبلت ملامحه. بدا أن كل ما حوله يذوب، كل الصور تستحيل سراباً، ثم تتقهقر ولا يبقى سوى الذاكرة تزفر كالجحيم الغاضب في خلاياه. رمادا صار كل ما حوله، من صوت العجوز المتهدج، إلى الهواء الخانق. تصنّع حسين التركيز والاستماع، فاستمرت العجوز تروي بثقة كيف أعطت دجلة عنوان الراعي المؤقت للطفلة اليتيمة، وكيف خرجت دجلة في اليوم المشؤوم ذاك دون أن تُخبر أحداً ولم تعد.

ـ حسبت المسكينة حساب كل شي، إلا أنو بعد ما ترجع.

أسبلت العجوز جفنيها، وقررت بذلك إنهاء حديثها مع حسين، كما كانت قد قررت من قبل أن تُخفي هذا السر لأكثر من عشرين سنة. خرج حسين من غرفتها غاضباً ليجد جابر بانتظاره. شكر جابر السيدة الستينية وودعها، ثم أسرع الخطى ليتمكن من اللحاق بحسين.

كان حسين غاضبا من سذاجة دجلة وتهوّرها. شعر بالحنق الشديد حيال هذه العجوز الحمقاء التي ضيعت زوجته ومنزله وحياته دون أن تكترث، بل وأخفت السر طوال كل هذه السنين الماضية وهي تعلم جيداً ما تعرض له، هو وأسرة دجلة، من متاعب وآلام، ناهيك عن التجريح الذي طاول سمعة زوجته.

ـ ملعونة ليوم الدين.

صرخ حسين بجابر الذي تقدمه بخطوات سريعة لاهثاً، متجاهلا تعصيبه على العجوز، ومد يده بورقة مطوية. أخبر حسين أنه عندما علم بحقيقة حكاية اختفاء دجلة قبل عدة أيام، أصر أن يسمعها حسين أيضاً بنفسه منها، كما أصر على الحصول على عنوان الفتاة اليتيمة وصورة شخصية لها. أدرك جابر عدم جدوى طلبه، كما أدرك حسين القيمة التي تلاشت للعنوان بعد كل هذه السنين، لكنهما كانا يعلمان جيداً الآن أن للغز خيطاً بات واضحاً. لا يزال جابر يميل إلى التصديق بوفاتها ولا يزال حسين يجزم أنها حية. مجرد كومة من الأسئلة التي تتبعثر أمامهما من جديد ولا تصلح لشيء، إلا كشرارة أمل واهنة تمسكا بها. تناول حسين ورقة العنوان من جابر الذي صافحه مبتسماً. ها هو جابر وقد عاد يشبه دجلة من جديد، الغمازة في خدهما الأيمن، والحاجبان الرفيعان اللذان يميلان مع كل ضحكة هي أشبه بالبكاء. تأكد حسين أن دجلة تعود إليه، أن شبحها يقترب ليلامس عذاباته، يدغدغ أوهامه، فيتغذى على ما تبقى له من أحلام. تذكر حسين عندها اتصالات ياسين المتكررة منذ ساعة، فأخرج هاتفه ليجده يتصل مجدداً للمرة الثامنة.

(19)

- باسم الله

أدارت أم جواد المفتاح دورة كاملة في القفل الحديدي الجديد وهي تردد

- وبمحمد رسول الله

أدارت المفتاح مرة ثانية.

- وبعلي ولي الله

هكذا كانت تَعُد كل ليلة، منذ قامت باستبدال القفل القديم الصدئ، ومعه لغة الأرقام بالآيات القرآنية والأحراز. اشترى سعد تحت توجيهاتها سلسلة حديدية وعدداً من الأقفال تكفي جميع نوافذ المنزل. مع تكرار أسماء الله ومحمد وعلي، والطواف حول الأقفال أكثر من مرة طوال الليل، شعرت أم جواد بالأمان المؤقت.

طوال الليالي الأخيرة، وكلما كانت رباب تتقلب في نومها، كانت تجد والدتها مستيقظة ترتل جزءاً من القرآن بقرب سرير رقية، أو تعيد ترتيب قطع القماش قرب ماكينة الخياطة، أو في

غرفة جواد تتلمس زواياها المألوفة في الظلام. عندما حدثت رباب أخاها سعداً ذات صباح، عن المشهد الذي صار يتكرر كل ليلة مؤخراً، تفاجأت بأن سعداً يلاحظ الأمر ذاته فجر كل يوم، وقت ذهابه إلى سوق الخضار، وحتى بعد عودته. إثر عملية حسابية بسيطة بين رباب وسعد، اتضح لهما أن والدتهما لم تعد تنام.

راقبت رباب حركات والدتها وسكناتها كما لم تفعل من قبل. تأملت حديثها مع الزبونات وميل كتفيها المُثقلين، كما تأملت وضعية تكوم عظام ظهرها وفقراته على آلة الخياطة، وحتى أسنانها البيضاء الكبيرة التي كانت تلوك بها بقايا الخيوط التي تقضمها. تطل الشراسة بهدوء بارد منها، كرائحة الأسرار النتنة، تفضح صمتها وتزاحم المخاوف في عقلها. هكذا تهيأ لرباب وقد شعرت بأنها تتعرف على نفسٍ جديدة، بعد أن فقدت أمها التي أرداها الهلع.

مارَسَ الثلاثة، أم جواد ورباب وسعد، أعمالهم أشبه بثلاث آلات خرساء. كان الروتين أكثر أماناً من الأفكار التي تنخر جوف كل منهم كالسوس، وكان الصمت أفضل ملاذ لتفادي إيقاظ جثث الأسرار النتنة.

طرقت أم جواد على الباب بضع طرقات. قربت أذنها من الباب أكثر وأعادت الطرق. كان الباب هشاً واهياً، ينوء بثقل الأقفال والسلاسل. تخيلته يسقط ليرتطم أمام أبو ثامر تارة، أو المحافظ تارة أخرى، أو حتى الشرطة. في كل تخيلاتها، كان الواقفون خلف الباب يرتدون أحذية سوداء جلدية فاخرة ولا يمسحونها بممسحة

العتبة البالية. أبعدت هذه الخيالات عنها بسرعة، كما تفعل مع ذبابة، مخافة أن يرى ولداها ضعفها. أحست في الفترة الأخيرة بنظراتهما تقلّب كيفما تشاء في صندوق عقلها، فتقص أفكارها، وتضيق أكمام مخاوفها، وتلقم بالإبرة والخيط ذاكرتها بلا استئذان. استدارت عائدة إلى حيث وضعت صينية الطعام على الأرض، فوافاها سعد ورباب ورقية، ولم تسمع منهم سوى أصوات اللقمات تلوكها ألسنتهم، ثم تقذفها إلى أمعائهم الخاوية منذ يوم أمس.

أخرجت أم جواد من جيبها ورقة نقدية مجعدة كانت قد جمعتها من التوفير الناتج عن إلغاء وجبة الغداء في الأيام الأخيرة، أعطتها لسعد وأخبرته أن يستعين بنجار أو حرفي ما لتركيب باب جديد أكثر صلابة واحتمالاً.

- يمة، ليش تريدين باب أقوى؟

سألت رقية، فنهرتها أم جواد بعصبية، ثم أمرت رباب أن تأخذ أختها لتستعد للنوم. أخذ سعد المبلغ بصمت، وضعه في جيبه، ثم عاد يفرش أصابعه بحرية في الصينية ويقذف باللقمات في فمه بسرعة. لم يعر نظرات أمه، التي جلست في زاوية الصالة تراقبه بصمت، أي أهمية. أنهى طعامه، ثم نهض حامداً ربه، فحملت أم جواد الصينية إلى المطبخ. وما هي إلا دقائق، حتى شرعت في تنفيذ طقسها اليومي الذي يبدأ بالطواف على الأقفال، وإحكام إسدال الستائر، ثم إعادة الكرة على كل ما من شأنه أن يكون منفذاً.

كانت رباب تراقبها من المطبخ تظهر وتختفي كطيفٍ حزين

هزيل، حتى اقتربت منها، ووضعت كفها على كتفها ببطء فقفزت أم جواد صارخة مذعورة، والتفتت لتواجه ابنتها بغضب. سألتها رباب عن مصدر هذا الرعب الذي دخل حياتهم فجأة، فلاذت أم جواد بالصمت وابتعدت.

لم ترَ رباب والدتها بهذه الحالة قبل الآن، ولا حتى بعد وفاة والدها. رحل يومها أبو جواد عنهم فجأة، فلم تسمح أم جواد لنفسها بالبكاء عليه سوى لثلاثة أيام بلياليها. في صباح اليوم الرابع، استبدلت حزنها بابتسامة رضا. بقيت على حدادها في ما ترتديه من سواد، ولسبب لم تفهمه رباب، كان على الأرملة الجديدة أن تُبقي على الألوان حزينة من حولها، في الوقت الذي تمتنع عن البكاء والنواح. حافظت أم جواد أمام الجميع بمن فيهم أبنائها، على نوع من التوازن الصعب بين إحساس الفقد والقناعة بأن خطة القدر هي ولا بد الأفضل.

تعودت أم جواد أن تكثر من تسبيحات الحمد والشكر لله، خاصة بعد أن وضعت جنينها بنتاً بعد مضي ستة أشهر على وفاة زوجها. أسمتها رقية لأن المرحوم كان مولعاً بيتيمة الحسين بن علي «رقية» التي استشهدت طفلة صغيرة. كبرت رقية وفي عينيها الواسعتين العسليتين أثر لدمعة عالقة، كلما نظر إليها أحد، شعر بغصة مؤلمة. وكانت أم جواد تخبر الجميع أنها عين اليتيم الذي لم ير قط أباه. شغلتها مسؤولياتها الكثيرة ورقية عن حزنها، إنما لم يكن يشغلها شيء عن انتظارها لبكرها جواد. كانت تجهزه عريساً

عائداً منتصراً، فأجلت كل أفراحها إلى ذلك اليوم، حتى أنها أرغمت ولدها سعداً أن ينتظر عودة أخيه، فتفرح وقتها بزواجهما معاً. اقترب سعد اليوم من الثلاثين عاماً وما زال ينتظر.

ـ يمه، شني اللي يخوفج؟

سألتها رباب ولم تبالِ بالغضب النافر من حدقتي والدتها التي أنكرت وتجاهلتها، فتبعتها إلى حجرتها بعناد، وأقسمت عليها بمكانة جواد لديها، فتهدل ذراعا أم جواد وسقطت عباءتها على كتفها المحدودب. أحضرت رباب كأساً من الماء وأجلست والدتها على سريرها، ثم أخذت تمسح على جبهتها وتقرأ الفاتحة والمعوذتين. أمسكت أم جواد بكف ابنتها وضمتها بين كفيها.

ـ أخوج جواد تأخر يمه رباب.

جلست رباب أمام أم جواد، تشاهد الرعب في أضعف ملامحه. جعلتها أمها تقسم أنها لن تخبر أحداً بالحديث الذي سيكون بينهما، حتى ولا سعد، فرددت رباب القسم وأنهته بـ «حتى ولا سعد». تحدثت أم جواد فعادت إلى الوقت الذي رحلت فيه عن أهلها من البصرة. قدمت إلى الموصل، وفي كل ذراعٍ تجرّ طفلاً، بينما تحمل الثالث في أحشائها. لم تكن قد رأت زوّجها قبل ليلة عرسهما، لكنها تعلقت به، كما عشقها بدوره حتى يوم رحيله. كان قاسياً جافاً إلا معها، يعتذر لها إن أخطأ في حقها، أو أهانها، إنما كانت كل اعتذاراته بينه وبينها، إذ كان يخاف على هيبته بين الناس.

كان رأس رباب في حضن أم جواد، تمرر أصابعها بين خصل شعرها البني الطويل، فيما تتجلى همسات السعادة عبر صوتها الحاد. أشرق وجهها وهي تتحدث عن زوجها الذي لم يفهم أحدٌ كيف كانت تتحمل طباعه الصعبة، وكيف وافق والدها على تزويجها رغم فقر الشاب، قائلا إن الله أمر بذلك في كتابه الكريم، «خذوهم فقراء يغنهم الله». الشهور الأولى من زواجها، تحلت بالصبر رغم ظروف العيش وصعوبة طباع عريسها وحين وضعت جواداً ثم رباب، لم تفقد أملها في جود الله وكرمه. لكن الفرج لم يأت إلا بعد عدة سنوات، عندما عرض عليهم أحد التجار وظيفة جيدة في منطقة بأطراف الموصل، بالإضافة إلى سكن. كان الأمر بمثابة معجزة حسدتها عليها أخواتها وصديقاتها، بينما بكتها والدتها. كانت الأولى بين فتيات عشيرتها التي تعايش تجربة الاغتراب. بعدها بفترة قصيرة، تهجّر الكثير من أهلها وغادروا العراق، وما عادت أم جواد إثر ذلك بعيدة أو غريبة عن البصرة.

ضحكت أم جواد بمرارة في وجه خطة القدر المبهمة، وعادت تروي لرباب كيف أنجبت سعداً بعد أسابيع قليلة من سكنهم على هذه الأرض. كان طالع السعد قد باركهما، فأسميا ثاني أولادهما سعداً، كي لا ينسيا فضل الله أبدا.

لا تتذكر رباب تفاصيل انتقالهم من البصرة، أو ولادة أخيها

الأصغر سعد، لكن ذكريات لهوها على هذه الأرض لا تزال عالقة في ذاكرتها. كلما تحدثت والدتها عن جواد، تراه يحملها على ظهره أو كتفيه، لتلتقط الفاكهة على أغصان الشجر. فوق كتفي جواد فقط، كانت رباب أقرب الى السماء، وهناك قرب النخلات، كان جواد يغزل السعف دمىً لسعد، وهناك قرب السور، حفر على الخشب أسماءهم قبل أن يطليه.

جفّت دمى جريد النخل، وتقشّر دهان السور، كما لم يعد للفاكهة النكهة والرائحة الشهية ذاتها. فهمت رباب أن ذاكرة الإنسان أوفى من أي شيء آخر، أدركت أيضاً أنها، مهما خشعت في صلواتها، لم تكن لتقترب من السماء كما كانت على كتف جواد. وفي الوقت الذي كانت تسخر سراً من انتظار والدتها لجواد، كانت هي تشتري لشقيقها العريس قطعة أعجبتها من الثياب أو الزينة، لثوب عروسة. تعارك الوهم الذي تبنيه والدتها في البيت وفي قلوبهم، ولا شيء جديد كان يحدث أبداً، حتى نبت ذلك الرجل الوقور ومن معه أمام عتبة الدار. ظهر فجأة ليسلبهم أرضهم وبيتهم.

طُلب جواد للجبهة بعد أن أكمل عامه السابع عشر، استمرت أم جواد تروي، فقطعت شرود أفكار رباب. كانت الحرب العراقية الإيرانية قد انتهت، ولم يكن مفهوماً لأحد سبب هذا الاهتمام بالجيش حتى تم غزو الكويت. لم يعد جواد منذ ذلك اليوم ولم تكف أم جواد عن انتظاره. الأرض التي يسكنونها هي عشيرتها

التي لم يعد لها وجود في البصرة، هي بكرها جواد الذي أخذته حرب عبثية، وهي الزوج الذي تعشق ورحل لسبب تجهله مع نظام تمقته، فكأن مشاعر الحب والكره كلها قررت تركها وحيدة في اليوم ذاته.

- شلون إذا رحنا وإجا أخوج جواد؟ وين بعد يلقانا؟

صمتت أم جواد حين غفت رباب. ببطء أنزلت رأس ابنتها من حجرها، غطتها ثم عادت لطقوس الحراسة الليلة. هي تعلم أنهم لن يستسلموا بعد محاولتيهما، وأنهم لا بد عائدون بمحاولة مختلفة. ساد الغموض تلك الليلة بدلاً عن الخوف. لم تكن أم جواد تريد لأحد أن يدرك حجم تعلقها بالأرض، ظنته سراً لم تبح به سوى الليلة لابنتها رباب. لكن ما لم تعلمه رباب، هو أن أمها كررت البحث في أوراق زوجها المرحوم وحاجياته، دون أن تجد أي صك ملكية للأرض، أو وصل شراء مثلاً. حتى ذلك اليوم، لم تكن أم جواد تقدر حاجة من يملك شيئاً، إلى مثل هذا النوع من الإثباتات.

كررت أم جواد جولتها على الأقفال بعد أن هدأ الجميع وخلدوا إلى النوم:

- واحد «باسم الله». . اثنين «بمحمد رسول الله». . ثلاثة «بعلي ولي الله». . .

(20)

ـ أربعة . . لو خمسة؟

بحث حجي حسين منصور في قائمة الاتصالات الواردة على شاشة هاتفه بنفاذ صبر. في ذلك الصباح البارد، في الباحة الرئيسية لجامع النبي يونس، حاول تذكر التاريخ الذي التقى فيه بمليكة آخر مرة، في الجامع النوري الكبير، عله يجد رقم هاتفها الذي اختلط عليه وسط الأرقام الأخرى غير المسجلة.

كان يتذكر وجود رقم أربعة أو خمسة في نهاية رقمها، فقرب الهاتف من وجهه حتى كاد أنفه يلتصق بالشاشة وأصابعه مستمرة بالضغط على أحد مفاتيحه. وجد أخيراً رقماً يشبه رقمها، مع تاريخ مقارب. توقف حائراً، متردداً في الاتصال بعد أن كان قد حسم أمره. أراد أن يطمئن عليها، ولم يكن قد تجاوز بعد أبعاد تلك الفكرة حتى هذه اللحظة.

«وحملت بي أمي وضيعة الشأن، وأخرجتني إلى العالم سرّا، ووضعتني في قارب من السل. . .». اقترب الصوت، فنزع حسين انتباهه عن الهاتف ليجد مجموعة من الطلاب الجامعيين يتقدمهم شاب يقرأ في كتاب. وقف الشاب، فأربك الجمع خلفه قبل أن

يتوقفوا بدورهم على أعلى عتبات الجامع، أبعد الكتاب عن وجهه، تاركاً سبابته في كبد صفحاته الصفراء، وباليد الأخرى أشار دون أن يلتفت كلياً، إلى الجمع الهادئ خلفه معرفاً: "هذا جامع النبي يونس عليه السلام، وتحته مدفونة كنوز سرجون الأكادي». صمت قليلاً، رفع الكتاب إلى وجهه ثانية، وتنحنح مصدراً صوتاً مضحكاً، قبل أن يكمل قراءة تفاصيل قصة تحوّل سرجون الأكادي من ساقٍ للملك، إلى إمبراطور دولة عظيمة تفوقت حتى على دولة الإسكندر الأكبر.

غابت مجموعة الطلاب داخل الجامع، فعاد حسين إلى هاتفه محاولاً استجماع شتات أفكاره والوصول إلى قرار محدد، قبل أن يمر الشيخ أبو محمد ويلقي التحية. وقف مستاء وقد ضاق ذرعاً بحيرته، ثم تذكر الظرف الذي أعطته إياه مليكة في نهاية لقائهما الأخير، فبدا له سببا منطقيا لاتصاله، إذ كان ينوي إعادته إليها. أسعدته هذه التسوية، فأسرع بالضغط على زر الاتصال. قرب الهاتف من أذنه ووقف ينتظر لبضع ثوانٍ، قبل أن يغلق الخط ويعاود المحاولة. أعاد حسين الهاتف إلى جيبه بعد انقطاع محاولة الاتصال الثانية.

كان كل ما حوله يشي باستعدادات مهرجان الربيع، هدية نيسان في كل عام، حيث تتبدل موصله حتى يكاد لا يعرفها. أطرق حسين برأسه يراقب موضع قدميه. يلمع المرمر تحتهما للشمس التي تتوارى بغنج، فلا يبدو منها سوى أوشحة أرديتها الملساء تجود ببعض الدفء. يعرف أنه بهذه النعل الرخيصة يرتكب إثم

السير على كنوز الإمبراطور الأكادي، كما يفعل الجميع كل يوم. يمشون على قطع الذهب الأثرية، يدوسون الياقوت واللآلئ النادرة التي كانت الأميرات تلف بها شعورهن وأجسادهن، يسحقون زخارف القصر، قوارير عطر أندر الزهور، وبقايا أسلحة جيشٍ لا يُقهر. تقبع تحت أقدامهم النوافير المعشقة بالأحجار الكريمة، والأعمدة المزخرفة بماء الذهب، والخيول الأصيلة. هنا، حيث يقف حسين، كان يُفرد ريش الطواويس الزاهي، وتُجلب الفيلة والأسود لمتعة المبارزة. أما هناك، حيث البيوت الطينية، فكانت تقف الأبراج الشاهقة متقنة البناء والنحت، لتواجه الموانئ المنتصرة بسفنها العملاقة كأنها الجزر.

يخبره الشيخ أبو محمد أنها، إنما قصص يجوب العالم بها على ظهر حوت، وفي أحشائه لا تزال دولة الأشوريين والأكاديين وبابل تجوسها الحياة.

- ستة . . سبعة.

رأى حسين ياسين يغلق الباب الخلفي لسيارة الأجرة، بعد أن تأكد من خروج الأطفال السبعة. لطالما تفاءل أخوه بموسم الربيع، لما يجلبه مهرجانه من حركة تُغنيه عن رحلاته إلى بغداد، أو غيرها من المحافظات، ولو بشكل مؤقت. عاد ينهمك بشاشة هاتفه حين حياه ياسين، فزاد من ارتباكه. ابتسم ياسين، ثم فرك يديه كما يفعل دوماً حين يتوتر، بينما أخرج حسين ولاعته ليشعل سيجارة ملفوفة بعناية، وتقدمه وهما يمشيان ببطء.

عندما حدثه ياسين عن الأرض قبل أيام، كان كل ما أخبره به أنها خدمة للعميد الذي أقرضهما مبلغ عملية والدتهما. تردد حسين في البداية، ثم استعجل الموافقة حين علم أن أبو ثامر وعد ياسين بأنه سيُلغي ما تبقى من الدين، في حال حصل على الأرض. ابتهج حسين أمام الفرصة الثانية التي تُمنح له من قبل السماء ليُكفر بها عن موقفه المتخاذل، حين فضّل حلمه بالأرض على والدته. تهلل وجهه وهو يعد أخاه بأن الأرض ستعود لأصحابها، بمشيئة القدير الوهاب وعونه.

شغّل ياسين السيارة وانطلق مسرعاً إلى بيت أبو ثامر، وحسين إلى جواره يسأله عن الأرض وأم جواد. احتشدت الأسئلة على خلفية صوت حركة مسبحة الكهرمان بين أصابع حسين وصمت ياسين الذي لم يكن على دراية بأكثر مما أخبره به يومها، عبر الهاتف. افتعل ياسين الاستغراق في منحنيات الطريق الوعرة، بينما شغل حسين نفسه بعشرات الخطط التي سوف يواجه بها السيدة قوية البأس. قفز إلى حسين السؤال الذي ألح عليه منذ مكالمتهما الأخيرة، فقرر أن يتخلص منه ومن الفضول الذي يزعجه كنحلة مشاكسة.

- ياسين، اشمعنه اختاريتني آني؟

- تدري حجي. . الناس تسمع كلام رجال الدين. . وانته. .

لم يكن حسين رجل دين بالطبع، لكنه فهم رغبة ياسين التأثير على السيدة من خلال مظهر أخيه وهندامه، وكلامه المشبع بالآيات

القرآنية التي يحفظها والأحاديث النبوية الشريفة، ودرايته المقبولة بعلوم الشريعة والأحكام. كان كافياً ذكر النبي يونس على لسان أي موصلي، ليقتنع الطرف المقابل، أو ليسلم على الأقل بخضوع. توقفت في حلقه فكرة نافرة، فعاود يسأل أخاه بسرعة وقلق:

- شسمها المرة من البصرة قلتلي؟

- أم جواد

- أبو منصور.. هاي شيعية!

توقف ياسين بسيارته فجأة على جانب الطريق. تقابل وجهه الأخرس بوجه أخيه حسين. فرك جبهته حتى احمرت، بينما ارتفع صوت طقطقة حبات الكهرمان التي انتشرت بقع نور منها في أرجاء السيارة. داست قدمه دواسة الوقود بقوة، بينما دارت ذراعاه مع التفاف مقودها، لينطلق بسرعة إلى جوف أحد الشوارع الفرعية، حيث اختلطت بقع الضوء العسلية برقصة مجنونة حولهما.

كانت المنازل من أول الطريق الذي يبدأ بالجامع وينتهي بمنزل أبو ثامر، تزداد فخامة وارتفاعاً، فتعلو إلى طابقين ويبدو على حدائقها المشذبة زيادة في العناية والاهتمام.

توقفت السيارة أمام سور قصير، حديث الطلاء. خرج ياسين وأشار إلى أخيه بانتظاره في السيارة، ثم لوح إلى البستاني الذي أبعد إبهامه عن فوهة خرطوم الماء، قبل أن يرمي به قرب ساق لوزة عريضة، ويركض ليفتح الباب الحديدي. جر الباب ممسكاً

بقضبانه نحو صدره، داعيا ياسين الذي عاد إلى مقعده وأعاد تشغيل السيارة.

تبع الاثنان خطوات ثامر ويحيى إلى داخل البيت، أجلساهما في الصالة بعد أن عرفا حسين إلى نفسيهما. بدأ ثامر بالحديث، فأخذت أم جواد تُخلق في مخيلة حسين على مهل، هيكلاً ـ فلحماً وجلداً، ثم رباب وسعد ورقية من حولها، فالبيت المتواضع، ثم الأرض. أدرك الأوراق الرابحة التي يملك بين يديه، كلما استطاع رؤية نقاط ضعفها عن كثب. وضع كل نقطة بلون مختلف على خريطة محكمة، كما كان يفعل قادة الفصائل في حرب الثمانينيات.

ـ ليش تأخر الوالد الله يحفظه بالمطالبة بالأرض لحد هسه؟

سأل حسين وهو يتناول استكانة أخرى من الشاي. ابتسم ثامر وقد أعجبه موقف حسين المسؤول، إذ أخذ يلم بالخيوط المتشابكة، يفند كلاً منها على حدة، ويفك العقد المستعصية. أوضح أنها أرض عمه في الحقيقة، وأن ابنه يحيى وزوجته قدما من فرنسا لبيعها. انقطع صوت ثامر حين بدا حسين ساهماً، التفت ياسين يستعلم من ثامر عن صحة والده، فاندفعت دفة الحديث صوب طريقٍ بعيدة مختلفة، وبقي حسين عالقاً هناك، حيث كانت الكلمات قبل عدة دقائق. وصف ثامر لياسين ويحيى دور متحف الموصل، حيث يعمل، في فعاليات مهرجان الربيع، وقطع أبو ثامر الحديث بانضمامه إليهم ليعيد وصله شارحاً أسباب انقطاع

عادة الاحتفال في الموصل، لسنين طويلة مضت، وعودة هذه الهوية الخاصة مؤخراً إلى وجدان أهالي أم الربيعين. التفت أبو ثامر إلى حسين مبتهجاً، بعد أن شكره على المساعدة التي سوف يقدمها لهم. أخبره أنه يعمل مع أحد زملائه القدامى الآن على الأمر، من الجهة القانونية، إلا أنه يدرك أنه بذلك يسلك الطريق الأطول التي قد تكلف عشرات السنين ومبالغ طائلة.

ـ حصلتو على شراي للأرض أستاذ أبو ثامر؟

سأل حسين مجتهداً في إخفاء انفعاله، إذ كان واجباً عليه التصرف بحكمة وسرعة منذ اللحظة، للحصول على الأرض. حرك أبو ثامر رأسه يمنة ويسرة نافيا، فأشرقت ابتسامة لطيفة على شفتي حسين، والتفت ياسين نحو أخيه مدركاً القيمة الجديدة التي اكتسبتها الأرض لديه. سيفحص حسين الأرض جيداً، فإن كانت تصلح لزراعة أزهار عباد الشمس، فلن يترك أم جواد تهنأ بالسكن على ترابها، ليلة إضافية واحدة.

أحضر يحيى نسخة من ملكية الأرض، فاحتفظ بها حسين في جيبه بعد أن طواها بعناية. تبادل الجميع أرقام الهواتف، واتفقوا على أن يبدأ حسين محاولته بعد يوم غد. رافق الجميع الشيخ حسين منصور كما أصبح لقبه بينهم منذ اليوم، إلى الباب. افترق أبو ثامر عن المجموعة عندما تجاوزوا عتبة البيت، واتجه إلى سيارته يتبعه يحيى. بقي ثامر مع ياسين وحسين.

ـ عمو عندك نستلة؟ عمو...

التفت حسين نحو مصدر الصوت الناعم، القادم من ناحية الدرجات الصغيرة، في الزاوية حيث يلتقي ضلع جدار البيت الأيسر مع الحديقة. نزل طفلٌ في حوالي الخامسة من عمره، تجتهد بالركض قدماه الصغيرتان وجسده الضئيل. تطايرت شعراته السوداء الناعمة التي قُصت بعناية على شكل رأس حبة الفطر. اقترب مسرعاً، بينما استمر في ندائه بعناد. توردت وجنتاه البيضاوان، والتصقت الخصل القريبة من وجهه بالعرق المتكوم على جبهته. فتح عينيه الواسعتين كقطة جائعة تموء، قبل أن تتعثر قدمه ويسقط على وجهه. صاح ثامر به غاضباً، ثم رفعه عن الأرض ينظف وجهه وملابسه وشعره من التراب. غطت الدماء المتفجرة من أنفه ذقنه ثم صدره، فلطخت قطرات حمراء قانية جسد البطة المضحكة المرسومة على قميصه. خاف من صرخات والده ومنظر الدماء، فأخذ بالبكاء.

ـ هذا ابني. . هادي.

أشار ثامر إلى ولده موضحاً، ثم إلى حسين الذي ابتسم وأحنى رأسه بحركة تحية خفيفة، قبل أن يقترب من الطفل ويمسح على شعره الرطب. اعتذر ثامر من ضيفيه اللذين استقلا السيارة، مبتعدين، فيما أسرع هو بهادي نحو المنزل.

(21)

ـ ثمانية خطوط

وضعت أم جواد إصبعها على شريط القياس، قربته من زبونتها، ثم بقيت ثابتة على موقفها. احمرّ وجه الزبونة الممتلئ الخدين، أمام الزيادة الهائلة في عرض خصر ابنتها، فجرّتها من ذراعها حتى آلمتها، ثم سحبت الفستان من بين يدي أم جواد بقوة، ودفعت به مع الفتاة خلف ستارة القياس التي تنصبها رباب في الصالة كل صباح، ثم تطويها مساءً، ليتسنى للنساء ارتداء أثوابهن نصف الجاهزة، دون إزعاج.

تركت أم جواد زبونتها الغاضبة تشرب الشاي الذي قدمته رباب، لتسجل القياسات الجديدة في دفترها تحت اسم الفتاة. تذكرت حديث النسوة عن شراهة الفتاة المفرطة بعد طلاقها، فلم تصدق حتى قابلتها قبل شهر، مع والدتها التي تجرها لحضور جميع الاحتفالات والأعراس. وفيما كانت الفتاة في الجهة الثانية من الستارة، أخبرت الزبونة أم جواد ورباب بصوت خافت متقطع، أنها تريد لبقية النسوة أن يعلمن أن الطلاق لم يؤثر على ابنتها.

أخبرتهن أنها ستقطع ألسنتهن التي تلوك لحم ابنتها بما لا تجرؤ حتى على التلفظ به.

تناولت الزبونة استكاناً آخر من الشاي وهي تعزو سمنة ابنتها إلى خلل في الغدة. خرجت الفتاة وهي تكاد تتعثر بالفستان، فأسرعت أم جواد إليها تثني أطرافه وتدخل الدبابيس في زواياه وأكمامه لتعديله. طلبت الزبونة إضافة بعض الدانتيل، وزيادة عدد الأزرار الصغيرة القماشية في الظهر، دون أي تعليق من الفتاة أو اعتراض، حتى خرجتا.

أسرعت أم جواد تزيل قصاصات الأقمشة وتنظف أرضية الصالة، بينما أخذت رباب في إعادة ماكينة الخياطة والشريط والبكرات إلى حجرة والدتها، ثم حملت صينية الشاي إلى المطبخ. صاحت أم جواد بابنتها لتحضر بعضاً من البخور الذي تحتفظ به لعرس جواد، ثم أخرجت طبقاً من قطعة كعكة رخيصة بالكريمة. أخذت رقية ترقص حول الطبق وتغني وتقفز، لكنها لم تجرؤ على الاقتراب، رغم أنها رغبت بشدة في تغطيس أصابعها الصغيرة في بياض الكريمة العاجي الجميل. كانت أم جواد قد حذرتها وهي تقرص طرف شحمة أذنها، أنها لضيف مهم جداً وليست لهم.

سمع الثلاثة طرقاتٍ متتابعة على الباب، فثار الفزع في قلوبهم. أسرعت رباب تنهي ما بيدها من عمل في المطبخ، وأدخلت أم جواد رقية إلى غرفتها وحذرتها من إصدار أي صوت أو من مغادرة

حجرتها حتى، ثم عدلت من هيئة عباءتها واقتربت من الباب تفتحه ببطء بعد أن تأكدت من هوية الطارق.

اقترب سعد من حديقة البيت، ثم تجاوز الباب ليجد شيخاً ذا هيبة ووقار، بقامة عالية وكتفين عريضين، ومسبحة كهرمان تدور كما انسياب الماء العذب البارد بين أصابع يمناه. حياه، ثم تبعه إلى داخل الدار حيث جلس ووالدته بعد أن تعرفا إلى الشيخ حسين منصور وعرفاه بنفسيهما.

أخرج حسين من الجيب الداخلي لجلبابه ورقة مطوية فتحها بعناية، ثم سلمها إلى سعد يطلب منه قراءتها على مسامع والدته وإطلاعها على محتواها، ثم أطرق حيث تنثني ركبتاه تحت جسده الضخم، وهو يراقبهما بطرف عينه. صمت سعد وأم جواد عندما أدركا أنها ورقة تثبت ملكية والد يحيى للأرض المنبسطة تحتهما الآن. انتظر حسين لبعض الوقت، قبل أن يتنحنح ويوجه سؤاله إلى أم جواد:

ـ ست أم جواد.. تعرفين حكم الصلاة على أرض مغصوبة؟

أوضح حسين في حديثه إليها وضع صيامها ودعائها على أرض تغتصبها عنوة من أهلها. بين كل جملة وأخرى، كان يدعوها بالمؤمنة، يرفع ناظريه إلى صورة الإمام علي بن أبي طالب التي تُعلقها في الصالة، ليذكرها بإيمانها وعقيدتها دون أن يُصرح بذلك مباشرة.

مسحت أم جواد العرق المتجمع على جبهتها بباطن كفها، ثم مسحته فوق شفتها العليا وذقنها بطرف حجابها الأسود. شكرته على حضوره واهتمامه، بلعت ريقها عدة مرات، قبل أن توضح للشيخ حسين بصوت خافت مُتعَب، أن ما يملكه إنما يدل فقط على أن الأرض كانت ذات يوم ملكاً لهم، ولا ينفي إقدامهم أو إقدام أي موكّل من طرفهم، على بيعها أو التصرف بها في ما بعد. ثم أشارت إلى صورة أبو جواد المعلقة على جدار الصالة حيث يتربع الشيخ حسين، واستكملت حديثها عن إيمان زوجها وأخلاقه العالية التي تمنعه من الإقدام على سرقة أرض، أو استغلال غياب أهلها عنها. صمتت قليلا لتعدل من جلستها، فبدت أكثر قوة وصلابة. ارتفع صوتها الحاد وهي تخبر حسين أنها على يقين من أن الأرض باتت ملكا لها ولأولادها، وإلا لطالب أصحابها بها عن طريق القانون.

سألها حسين إن كانت تملك ما يُثبت ملكيتها للأرض، أو إن كان أبو جواد قد اشتراها من جهة يمكنهم الاتصال بها للتأكد. هزت رأسها بالإيجاب، وأكّد سعد كلامها دون تردد.

تململ حسين في مكانه بعد أن استنفد ما كان قد رتبه من أجل لقاء اليوم. اجتمعت نهايات الطرق الضيقة التي حفرها بصعوبة أمام أم جواد، متحولة إلى جدران صلبة، فأحس كما لو كان فأراً يُحاط بمصيدة لئيمة أينما يمّم وجهه. استغرب عدم معرفة أبو ثامر

ويحيى بأمر الإثباتات التي تملكها أم جواد، والتي قد تقطع ذيل هذا النزاع فوراً.

صمت الثلاثة لمدة طويلة دون أن يتجرأ أحدهم على النظر في وجه الآخر. إلى أن رفع حسين رأسه، فرك لحيته وشاربيه بسبابته وإبهامه، ثم عرض على أم جواد أن يقوم يحيى بشراء الأرض منها. تهلل وجه أم جواد. كان يهمها أن تسمع هذا العرض منهم، لا لشيء، إلا لأنه يُثبت أنها تملك الأرض بالفعل وأنهم يُقِرون بذلك. أجابته بعد فترة من الصمت المخادع المشوب بإيماءات الرضا والموافقة، بأنها لا تفكر ببيع الأرض أو التخلي عنها، كما فعل والدا يحيى قديماً.

- مو كلنا نقبل نترك أرضنا ووطننا علمود وظيفة أحسن وكم دولار زيادة.. شيخ حسين.

ثم استكملت حديثها عن ولدها جواد الذي تنتظر عودته لا محالة. كان ثامر قد أخبر حسين عن قصة جواد، لكن حسين طلب منها أن ترويها له. تعلقت أنفاسه بتفاصيل أعادته إلى الحرب ذاتها والاختفاء ذاته. هو فقد الزوجة، وهي فقدت الابن، فبقي حسين ينتظر دجلة وبقيت هي تنتظر جواد. تساءل حسين، إن كان جمعهما الوهم طوال كل تلك السنين الطويلة، كما تجمعهما الأرض الآن. كان، على أي حال، يُدرك صعوبة ما يُقدم عليه، إلا أنه في هذه اللحظات، لم يعد يعرف أي الطرفين على حق. ساد الضباب، فذابت الوجوه المتكومة أمامه. تداخلت ملامح أم

جواد وسعد، بتفاصيل أبو ثامر ويحيى، فتشكلت لوحة للرؤوس الثرثارة من الألوان المنهمرة بعشوائية، غير المفهومة. وحدها الأرض بقيت قريبة مألوفة، فتأكد حسين الآن أن الأرض ملكه وحده. أمامه ارتفعت عصا القرعة الثالثة، تختاره كما حدث مع يونس عليه السلام، فما يكون من أمره بعدها إلا الإلقاء بنفسه إلى جوف الظلمات الثلاثة، الليل والبحر وأحشاء الحوت.

حاول حسين إقناع أم جواد بالانتقال إلى أرض أفضل، أو أخرى قريبة، ثم بدأ إغواءها بمبلغ جيد من المال يغنيها عن الشقاء خلف أزيز ماكينة الخياطة، ويُخلص ولدها سعداً من وظيفة لا تعود عليهم بأكثر من رغيف واحد يحشرونه عبثاً بين فكي جوع لا يهدأ. راقب ببعض الخبث وكثير من الرجاء، الصور والخيالات المتشكلة على صفحة عيني سعد، وشعر باقترابه من غايته حين سادت الأنفاس المتسارعة الخرساء على قوة الاعتراضات الخاوية، فاستكمل حديثه عن العرس الأفضل والجهاز العالي الجودة والمرتفع الثمن الذي يمكنها أن تُحضره لجواد، بهذا المبلغ الدسم الذي سوف تحصل عليه مقابل الأرض. مضى حسين لتحقيق حلمه بخطى ثابتة، يبيع لسعد وأمه حلماً جديداً طازجاً، تغلفه الوعود الساخنة الشهية.

رجع حسين بجسده إلى الجدار يسند ظهره ويستريح، فنهضت أم جواد تزم عباءتها قرب ذقنها ليختفي نصف وجهها السفلي. أخبرته أنها سوف تعرض عليه أمراً يحل معضلتيهما، إن هو قبله.

وقف حسين تاركاً استكانة الشاي على الأرض، فتبعه سعد واقفاً مقترباً من كتف والدته، ليبدوا أشبه بفسيلة تنشق عن جذع أمها.

ـ اترجعولي أرض أهلي بالبصرة.

صمتت أم جواد بعد أن أعلنت شرطها الوحيد بجملة مقتضبة حازمة. قررت أنها لن تتراجع عن أرض زوجها المرحوم وأرض أولادها، إلا مقابل أرض أهلها في البصرة، هناك حيث وُلد جواد ورباب، وحيث اجتُثت جذورها وتشتت أهلها. فعلى الأرض التي اقتُلِعت عشيرتها منها منذ زمن حتى يبست الأغصان وذوت الثمار، يمكن لجواد أن يجدها. سيعود إلى هناك ويتزوج هو وسعد في ليلة واحدة، فترتاح هي أخيراً، ولا تتحلل أشلاؤها بعد وفاتها في رحم أرضٍ غريبة.

اقتربت أم جواد من الباب، وأشارت لحسين بأن يتفضل. وقف حسين عند عتبة الدار، ثم التفت إليها قبل أن يهم بالانصراف، طالباً رؤية الأوراق التي تُثبت ملكيتها للأرض. ضمت كفيها إلى بعضهما البعض، ورفعت رأسها لتخبره أنها ليست بموضع المتهمة. لن تريه أو أحدا من طرفهم، أي أوراق وليست مضطرة لإثبات أي شيء.

تململ حسين ثم ودّعها وسعداً. راقبته أم جواد يغادر الحديقة، فالسور، ثم يقف لبضع دقائق على الرصيف المقابل. اقترب منه رجل ببزة عسكرية، فحياه، ثم تحدثا لبعض الوقت. كان سعد يراقبهما من نافذة قريبة، فأخبرها أنهما يبدوان صديقين

أو أكثر. هزت أم جواد رأسها موافقة، ثم غطت فمها المُطبق بأصابعها. أرخت حجابها وأنزلت عباءتها على كتفها، ثم شمرت عن ساعديها، رفعت كفيها إلى السماء وانخرطت في بكاء مؤلم.

رحل حسين عن الرصيف المقابل للأرض، بعدما تأكد من مراقبة أم جواد وسعد له. كان قد اتفق مع علاء على الحضور لزرع الرعب في قلبها، فابتهج لنجاح خطته.

خرجت رباب من المطبخ واحتضنت أمها، بينما وقف سعد مطرقاً. أخذت أم جواد تدعو بكلماتٍ متدافعة غير واضحة، شعرت بالضعف والوحدة كما لم تشعر حتى حين مغادرتها أهلها في البصرة، مع طفليها وجنينها إلى الموصل، أو حين رحيل زوجها عنها فجأة. لم تعد تعرف إن كان الصبر والجلد قد خذلاها بعد هذه العشرة الطويلة أو أنهما كأشرطة المطاط، قد فقدا مرونتهما مع الزمن. تخيلت خروجها من الأرض تجر رباب في يمناها وسعداً في ذراعها الأخرى، وتحمل جواداً بين أحشائها. مشهد مشابه لما عاشته قبل أكثر من عشرين عاماً، إنما باختلافات طفيفة. حقيقة معكوسة كما لو كانت تنظر في مرآة. تذكرت رقية والدمعة العالقة في عينيها كوشم بدوية، فانهارت على الأرض وسقطت معها رباب الملتصقة بحضنها ترتجف.

اقترب سعد وانحنى بحنان يربت على كتف أمه، ثم مد ذراعيه فاحتضن أمه ورباب. هدأت أم جواد بعد عدة دقائق. حملت صينية الشاي وبقايا الكعكة تعود بها إلى المطبخ، فتبعها سعد،

بينما أسرعت رباب تطلق سراح رقية التي بدت غارقة في دفتر التلوين.

سأل سعد والدته بعد تردد، إن كانت الأرض حقاً لهم. استدارت أم جواد مصدومة فسقط من بين يديها أحد الأطباق. دوى صوت تهشم الزجاج على الأرضية السيراميك، في غرف المنزل، فارتفع صوت رقية بالبكاء وصاحت رباب تسكتها. أغلقت أم جواد باب المطبخ بيدين مرتعشتين، حاولت العودة إلى هدوئها، ثم أخبرت سعداً بأنها لا تملك هذه الأوراق التي ادعت أمام الشيخ أنها تملكها. كانت على يقين من نزاهة المرحوم زوجها وأخلاقه، لذا لم يكن يكفي اختفاء الأوراق لزرع الشك في قلبها.

- أكو أمور ما تحتاج أوراق ثبوتية ابني سعد .. أكو أمور تنعرف هنا.

أشارت أم جواد إلى قلبها، فعادت تبدو كنخلة عراقية ثابتة أصيلة.

(22)

- neuf

رددت مليكة بصوت مرتفع نسبياً وهي تكتب الرقم وتتبعه بكلمة mai، على شراع قاربها الورقي الجديد. دست القارب في حقيبتها نصف الفارغة بسرعة، فور اقتراب خطوات خارج الغرفة. فُتح الباب ببطء ودخل يحيى مبتهجاً، ارتمى بكل ثقله على الأريكة ليستلقي بجوارها.

- تعرفين شنو معنى مليكة؟

سألها من دون أن يرفع رأسه من على طرف الأريكة. ضم أصابعها الباردة بين كفيه، فاقتربت لتسند رأسها على كتفه. تساءلت صامتة إن كان يحيى يعرف فعلا حجم الدفء الذي تشعر به كلما نظرت في عينيه. يزداد في قلبها خوف تجهل مصدره، ربما لأنها لم تعرف الاستقرار مع والديها، ولأن الجميع يتفق أن لا أمان في هذه الدنيا. ربما لأن يحيى هو أول وطن حقيقي لها، لا تنتقل منه وإليه بحقائبها كل صيف وخريف كغجرية تائهة، وأول بيت يستوعبها ويذوب فيه ضعفها وانكساراتها. ومع ذلك، كان

القلق يلكز سعادتها بخبث كلما ركنت إليها، ليخبرها أن لا شيء يدوم. أجابت بهدوء:

ـ مليكة.. من المُلك والقوة والجاذبية، كيما كان أبوي يقول.

ـ خطأ.

ضحك يحيى، فاستغربت مليكة. التفتت إليه تنتظر تفسيراً بشغف، فأطال صمته عمداً ليشاكسها. ألحت متوسلة، فرد مبتسماً:

ـ مليكة، لأنكِ ملكتِ مفاتيح الدنيا. و«كأني أيتها الملكة من بطنكِ كالعصفور خرجت»،

ـ شكلهم أهلنا كانو عارفين راح نلتقي .. يا عصفور، يا نزار قباني أنت.

ضحكت مليكة وهي تنهض من الأريكة، لتحضر سترتها وحذاءها. أخذت تصفر مبتهجة ما ظنته الموسيقى التصويرية لفيلم العراب، حين اقترب هادي منها يشد طرف قميصها الطويل. كان يرتدي حذاءه ويحمل حقيبة طعام المدرسة على ظهره. دفع شعره من على عينيه وجبهته، ورفع رأسه يبتسم.

ـ ماما قالت أطلع وياج.

أمسكت مليكة بهادي من يده الصغيرة وخرجت تبحث عن أم ثامر أو بسمة، فلم تجد أحداً في المنزل. كررت بحثها في

الممرات الخلفية وغرفة المخزن والحديقة، وتبعها هادي صامتاً بومضات ضوء أحمر متتابعة يصدرها حذاؤه.

عادت لتجد يحيى يستعد للنوم. كانت أمامه ساعة للراحة قبل أن يعاود الخروج، فالتفتت إلى هادي الذي بدا مسروراً جداً بيأسها. التفت يحيى إليها قبل أن تغطي البطانية وجهه وقال:

ـ سولفيلي لمن ترجعين عن الجامع وشيخ حسين.

اكتشف الاثنان، مليكة وهادي، أن لا مفر من حملها معه في رحلتها إلى جامع النبي جرجيس، مع الحاج حسين. حاولت اقناعه بالتخلي عن حقيبة الطعام الفارغة على ظهره، ففشلت. فتح هادي حقيبته الصغيرة الملونة ليُريها تفاحته الحمراء ومجموعة الضمادات والشاش النظيفة التي قد يحتاجها بعد الدرس المؤلم الذي تركته بعد سقطته الأخيرة أمام درجات باب المنزل. ضحكت مليكة، قبل أن تعود إلى تصفيرها.

«ليش السيارات ما تمشي على الرصيف مثلنا؟ ليش وقف الدخان اللي كان يطلع من عمو بياع الجرايد؟ يعني شنو حامل؟ شوكت راح ترجعين وي عمو يحيى لباريس؟» واستمرت أسئلة هادي، سؤال مع كل خطوة. تدافعت أسئلته الشقية المتقافزة كأرنب هارب تتزاحم في عقلها وحديث يحيى ليلة أمس. أعطت مليكة سماعتيها وهاتفها المحمول لهادي، فأسكتت أسئلته نغماتُ الموسيقى الصاخبة بمجرد أن سالت في أذنيه الصغيرتين، وتركت المجال لصوت يحيى في عقلها ينطلق حراً لوحده.

توصلت هي ويحيى يوم أمس إلى أن المعجزات يمكن أن تحدث. أثناء حديث يحيى عن الرجل الذي اختاره ياسين ليقوم بمهمة إقناع أم جواد والتأثير عليها، بقيت مليكة تستحضر دعاءها ودموعها يوم زيارتها الأولى لجامع النبي يونس. مع كل خطوة تُقربها ويحيى من تحقيق حلمهما، كان يعود ذلك المشهد ليتشكل في مخيلتها، فكأنها كانت بداية السعادة التي يتذوقانها، وكأنها هي تميمة يحيى. تساءلت إن كان حسين منصور الذي يصفه يحيى هو نفسه سادن الجامع ومرشدها، حتى لفظ يحيى كلمة النبي يونس. تجمدت فرحة مليكة وحماسها لبضع ثوانٍ كافية ليطلب يحيى تفسيراً. وصفت مليكة ملامح الحاج حسين جيداً، فكان يحيى يومئ بالإيجاب مع كل ملمح وخصلة. صمتت، قبل أن تتذكر مسبحته الكهرمان العسلية، فعاجلها صوت يحيى:

ـ وعنده سبحة حجر كهرمان لونها عسلي.. مزعجة

شعرت مليكة بالراحة وهي تُخبر زوجها أخيراً، بتفاصيل لقائها بحسين في جامع النبي يونس، ومن ثم في منارة الحدباء. لم يبدُ على يحيى الاستياء رغم اختيارها كلماتها بعناية ومحاولة تفسير موقفها. ضحكت مليكة في سرها من موقف المتهمة الذي وضعت نفسها فيه كل هذه المدة، ومن دون أي سبب.

توقفت مليكة حيث بداية سوق الشعارين، ثم استدارت لتمشي بضع خطوات نحو بوابة جامع النبي جرجيس. عدلت من حجابها المختار بعناية هذه المرة ليتماشى خصيصاً مع قماش ولون قميصها

الطويل وبنطالها العريض. التفتت يمنة ويسره تبحث عن الحاج حسين متكاسلة أن تتصل به، صاح هادي

- عمو الدم . . عمو الدم

أسرعت مليكة بوضع كفها على فم هادي لتسكته حين لاحظت اقتراب حسين، وابتسمت متوترة. توقف حسين حين لاحظ هادي وتذكره، نزل على ركبتيه حتى صار بمستوى عيني الصغير، حياه وسأله عن أثر سقطته، فأشار هادي بإصبعه إلى موضع لُف بالشاش بعناية. استأذن حسين مليكة ثم ابتعد قبل أن يعود بعد قليل، بكيس من الحلوى أعطاه لهادي. أعاد هادي هاتف مليكة وسماعاتها إليها، وانشغل بالكيس بينما دخل الثلاثة إلى الجامع.

عبر الثلاثة باحة الجامع الصغيرة جداً، مقارنةً بجامع النبي يونس أو بالجامع النوري الكبير. بدأت مليكة تستوعب الطراز الموصلي في بناء المساجد وتدرك اللمسات التي بنيت على أساسها القباب والمنائر، واسترسل الحاج حسين برواية قصة المكان. ابتسم وهو يلمح الذهول في عيني مليكة، فكرر حديثه ثانية يخبرها بقصة تيمورلنك الذي تبرع لمقام النبي جرجيس والنبي يونس عليهما السلام، بعشرة آلاف قطعة نقدية من عملة ذلك الزمان. بدت القصة ضرباً من الخيال أو دعابة، حتى أسهب حسين في شرح تفاصيلها، راوياً هجوم تيمورلنك على الموصل، والمجازر والدمار الذي ألحقه بها وبمراقدها ومساجدها وآثارها. وعندما لدغ دبور عين تيمورلنك فتورمت ولم يعد يبصر بها، أدرك أنها بذنبٍ

ارتكبه. قلد حسين ما يُخيل إليه أنه صوت تيمورلنك، مردداً مقولته الشهيرة:

- «والله ما فعل بي هذا إلا حاميها».

ضحك هادي أمام هذا الارتجال الطريف وابتسمت مليكة على استحياء.

- الله يخليلك ابنك ست مليكة

- هادي ابن ثامر، ابن عم زوجي . . أنا زوجة يحيى.

أجابت مليكة، ثم دعت له بأن يسعد برؤية أحفاد أولاده.

- اني ما عندي أولاد.

أجاب حسين بمرارة، ثم رفع إصبعه نحو المنارة حيث تعوّد أهالي الموصل القدامى رؤية علم يُرفع عليها مع أذان كل صلاة، حتى عُرف من يقومون بهذه المهمة بأسرة شيال العلم، مشيرا الى الأبيات الشعرية التي كانت محفورة على الجدران الداخلية للجامع، بينما أخرجت مليكة دفتر ملاحظاتها الصغير تكتب ما يرويه، وتلتقط بعض الصور. تذكرت أن أبو ثامر قد سبق وأخبرها بوجود شعرات للرسول يحتفظ بها جامع النبي جرجيس. أرادت أن تطلب من حسين التوسط لها عند الهيئة المسؤولة لرؤيتها، ثم عدلت عن ذلك.

توقف حسين فجأة، بحث في جيب جلبابه، وأخرج ظرفاً

أبيض قدمه لمليكة التي بدت غير مدركة لما يجري حولها. سألته فأخبرها أنه مالها، صمتت وترددت وتعجبت من موقف هذا الشيخ الماثل أمامها. وقف حسين صامتاً هو الآخر. لم يكن متأكداً من صحة قراره بطلب وساطتها ومساعدتها في شراء أرض زوجها.

توجه حسين بخطوات ثقيلة نحو بوابة الجامع فتبعه هادي ومليكة. ودّعهما أمام سوق الشعارين دون، أن يحدد، أو مليكة، موعدا أو مكانا للقاء القادم.

وقفت مليكة تنتظر سيارة أجرة، ثم عدلت عن رأيها. أمسكت يد هادي الصغيرة وبدأت تركض لتلحق بحسين. توقفت بعد قليل تنظر في الاتجاه حيث مضى، يتبعها هادي بصدره الصغير الذي يعلو ويهبط بسرعة. لم تجده، لا شيء سوى الدخان الأسود الثقيل من عوادم السيارات، أصوات زحام المارة والأطفال الذين يبيعون المناديل الورقية عند إشارة ضوئية قريبة، والمتسولون وباعة البسطات على الرصيف.

مشت مليكة بضع خطوات أخرى في الاتجاه ذاته، قبل أن تلتفت لتجد هادي واقفاً حيث تركته. عادت لتمسك بيده، ماضية في الاتجاه المعاكس حيث تنتظر سيارات الأجرة.

ـ ست مليكة!

التفتت لتجد حسين واقفاً خلفها بابتسامة وقورة. لقد عاد بعد وداعها وهادي، إلى حيث كانا ينتظران سيارة الأجرة، فلم

يجدهما. ثم انحنى يبعد شعرات هادي المبلولة عن جبهته، قبل أن يحمله ويشير لمليكة أن تسبقهما إلى سيارة أجرة قريبة.

أجلس حسين هادي إلى جانب مليكة في المقعد الخلفي، وجلس هو إلى جوار السائق، مشيرا إلى عنوان منزل أبو ثامر. أخرج مسبحته من جيبه وأخذ يتلاعب بقطع الكهرمان بين أصابعه، فتحركت شفتاه همسا مع كل حبة تسقط. أدار رأسه إلى الوراء وروى لمليكة خطورة الوضع الأمني في الموصل، شارحا سبب إصراره على مرافقتهما إلى المنزل. التفت السائق إلى حسين مؤكداً كلامه، ومتحدثاً عن المظاهرات المناهضة لحكومة المالكي وعن تلك التي تؤيده، عن الأحزاب المتفرقة كلٌ حسب مصلحته أو طائفته، قبل أن ينتقل إلى مواقف الدول المجاورة والمحيطة، واستفادة كل منها من الوضع الراهن. استمر يحكي بسرعة معلق رياضي وحنكة محلل سياسي، فأربك مليكة لتداخل لهجته العراقية صعبة الفهم بكم الأسماء والمصطلحات الجديدة عليها.

لم يطل الأمر بهم، حتى توقفت السيارة أمام سور منزل أبو ثامر، فنزل هادي راكضاً، متجاوزاً بوابتها بحثا عن والدته، ووقفت مليكة تشكر حسين الذي طمأنها عن نتائج حديثه مع أم جواد بخصوص أرض زوجها، قبل أن تبتعد مودعة.

انطلقت السيارة من جديد، فأخرج حسين ورقة مطوية من جيب صغير في جلبابه وأطال النظر في العنوان المكتوب عليها.

كان الخط متعرجاً باهتاً، والورقة صفراء مبقعة بالرطوبة وبقطرات من الزيت. دعا حسين أن يُكتب للعنوان عمر أطول، فيجد دجلة في انتظاره هناك، مع طفلة كوردية يتيمة ستكون قد غدت امرأة عشرينية اليوم.

(23)

ابتعد ياسين عن سيارته، وضع إصبعه في أذن، ملصقا هاتفه المحمول بالأخرى، فجاءه صوت سحر عالياً متقطعاً. اكتفى هو بالرد بلا ونعم، إلى أن رأى جابر يغادر السيارة أيضا، متوجها إلى عربة فاكهة قريبة. انحنى ياسين يتفقد أخاه حسين، فلمحه ممددا في المقعد الخلفي للسيارة. لم يعتد حسين على هذه الرحلات التي تنتهي دوماً بحالة من الإعياء الشديد، يتبعها نزف في أنفه أو قيء.

«اي . . اي، اسمعكِ سحر»، ارتفع صوت ياسين من جديد وهو يطمئن زوجته بوصولهم سالمين، إلى قضاء سنجار في محافظة أربيل، ثم أغلق الخط مسرعا لمساعدة جابر في حمل أكياس بلاستيكية وضعاها معا في صندوق السيارة. أخرج حسين رأسه من النافذة بصعوبة، يسأل عن محتوى الأكياس، فرد ياسين بأنه وجابر سيجربان للمرة الأولى بعضا مما تشتهر بتعتيقه سنجار. أشاح حسين برأسه غاضباً، يستغفر الله، فضحك الاثنان حتى دمعت عيناهما. فزاد امتعاض حسين.

ـ هاي فاكهة وعسل نحل. . خوش نوع من جبل مرسي.

قال ياسين وهو يدير محرك السيارة، ثم أردف:

ـ الوالدة تسلم عليك، حجي.

اعتدل حسين في جلسته، وقد أحس ببعض التحسن، فطالعته من النافذة أسوار قلعة أربيل، ثم طرف المنارة المظفرية. تذكر مليكة التي لم تكن لتترك هذا الشارع، من دون معرفة قصة المنارة وتاريخها. ارتفع أذان صلاة الظهر، قاطعاً على حسين أفكاره الحائمة حول صورة دجلة التي لازمته طوال الطريق.

توقفت السيارة في منطقة سكنية بسيطة، نزل الثلاثة، وأخرج حسين سيجارته وقد أجل إشعالها منذ ليلة أمس، بينما رفع جابر الورقة ليقارن الرقم المكتوب عليها بأرقام المنازل في ذلك الشارع. خرجت فتاة كوردية من بوابة منزل مجاور، فتعلقت عينا حسين بها. توقفت الفتاة لدقائق أمام البوابة نصف المفتوحة، إلى أن خرج شاب وقف إلى جوارها، فتقدمت هي تقفل البوابة الحديدية الصدئة. كانت ترتدي ثوبا زيتونيا مطرزا بخيوط ذهبية عند الكمين، له كسرات تغطي ساقيها المنزلقتين داخل جوربين رقيقين، وحذاء أسود لماع ذكّر حسين بأحذية طالبات المدارس. راقبها وهي تُعيد المفتاح إلى حقيبتها الجلدية، ثم تمسك مقبضي البوابة فتهزهما بقوة لتتأكد من حسن إغلاقها.

لوح ياسين بذراعه من بعيد منادياً، فأسرع إليه حسين وجابر، ووقف الثلاثة أمام بوابة صدئة أخرى.

- جون بتوانم خزمةتت بكةم؟

تبادل جابر وياسين النظرات، بينما أخذ حسين يتأمل المنزل الذي برز كقطعة من الجبل، حاسر الرأس، رمادي الجسد ومبقع بشجيرات خضراء وحشائش برية تبدو كزغبٍ على بشرته الصخرية. «كيف يمكنني مساعدتكم»، عادت المرأة تقول، فسألها جابر بعبارات كوردية ركيكة عن اليتيمة، صححها ياسين، فتبعثر انتباهها بين صوتيهما وإيماءات يديهما. فركت المرأة ذقنها وزمت شفتيها، ثم تمتمت بكلماتٍ سريعة قبل ان تدفع البوابة فترتطم مدوية في وجوههم.

ضرب جابر البوابة غاضباً، فاهتزت أوصالها المهترئة حتى كادت تنسلخ عن الجدران المحيطة بها، أطرق حسين يقلب التراب بطرف حذائه، وأدار ياسين ظهره وهو يضع كفه على كتف حسين ويطلب منه العودة. همّوا بالرحيل، فإذا بالبوابة تُفتح من جديد ليظهر فيها وجه رجلٍ شديد النحافة والسمار، نبت شاربه ولحيته، بينما لا يحتوي رأسه على شعرةٍ واحدة. تناول الرجل ورقة العنوان من جابر، ثم أكد لهم أنه العنوان الصحيح. أخرج جابر صورة دجلة وصورة الفتاة الكوردية اليتيمة، وسأله إن كان يعرف أيا منهما. قرّب الرجل الصورتين من عينيه يدقق النظر فيهما، كرر ذلك عدة مرات، قبل أن يعيد صورة دجلة وهو يهز رأسه نفيا، ويرفع صورة اليتيمة الكوردية، يهزها ومعها رأسه بالإيجاب.

طلب جابر منه أن يُري السيدة وجميع من يقطن المنزل، أو كان يسكنه في تلك الفترة، الصورتين. تململ الرجل، ثم حك رأسه، فلم يفهموا رد فعله، إلى أن فتح البوابة، فاتسع الطريق مفتوحاً أمامهم. دخل جابر وتبعه ياسين، وابتعد حسين متجهاً إلى السيارة، معلنا أنه سينتظرهما هناك.

انتظر حسين بضع دقائق قرب السيارة، ثم مضى بخطوات ثقيلة نحو شارعٍ قريب تتابعت على جانبيه الجدران المتصدعة والأشجار المُثقلة بالثمار. شعر، مع كل خطوة يسيرها صامتا، أنه يدوس حيث وطئت قدما دجلة من قبل، فيلتقيان هو وهي، لا يفصل بينهما سوى عشرين عاما. رفع حسين رأسه إلى السماء يحبس دفقة من الهواء في صدره، فضربت عينيه شمس الظهيرة الحارة، أخرج منديلاً يمسح العرق على جبهته وأعلى شفتيه ورقبته، ثم التف عائداً من حيث أتى.

مرت في الزقاق الضيق سيارة مسرعة لا تكاد تكفي المساحة لاستيعابها، فتراجع حسين ملتصقا بأحد الجدران الطينية ليتقي عجلاتها، قبل أن تغمره زوبعة تراب خلفتها. ملأ الغبار والدخان الأسود لباسه ووجهه، متحولا طيناً ندياً بعد أن اختلط بالدمع الذي غطى جفنيه ووجنتيه، من أثر السعال والعطس.

اختفت السيارة، تاركة صوت شادية خلفها يصدح مرتفعاً. أدمنت دجلة فيلم «لا تسألني من أنا»، حتى حفظه هو. تعلقت

بشادية بعد أن علمت أنها مثلها، لا تنجب. أحبتها فتابعت أخبارها واحتفظت بالمجلات التي تحوي صورها. في الأشهر الأخيرة التي جمعته بها، وقبل أن يتم استدعاؤه للانضمام إلى الجيش العراقي في حرب الثمانينيات، اجتاحها الأرق. حوّلها العقم والحرب شبحاً هزيلاً لا ينام. كانت تفرش قدورها وأطباقها المعدنية كل ليلة، على ورق الجرائد أمام التلفاز، تختار فيلماً مصرياً بالأسود والأبيض، ثم تشمر عن ساعديها وتبدأ بحشو الخضروات. تصنع خلطة الأرز والبهارات والكزبرة بالليمون، وتلقمها بأصابعها لقطع الطماطم والكوسى والفلفل الأخضر الخاوية. تغمس أصابعها في إناء صغير به زيت، وبعد أن تنتهي من رص الخضروات في القدر، تسكب عليها معجون الطماطم وتتركها في الثلاجة، ثم تأوي إلى فراشها قرابة الفجر، لتستيقظ بعدها بساعتين.

في تلك الفترة، جرب حسين السجائر وتعلق بها منذ أول علبة، لكنه عاد فجرب سجائر اللف. أعجبته الطقوس التي عليه ممارستها من لفٍ وحشو، ربما لأنها كانت تذكره بدجلة. لذلك ترك كل ما سواها على الرغم من صعوبة توفيرها خاصة في فترة الحصار الاقتصادي في التسعينيات. شاهدت دجلة فيلم «لا تسألني من أنا»، حيث تبيع شادية ابنتها بدافع الفقر، في منتصف الثمانينيات، ومن يومها راحت تشاهده كل ليلة. وعندما رحل حسين عنها إلى الجبهة على الحدود العراقية، كان أكثر ما يشتاق إليه هو طعم المرارة في معجون طماطم المحشي، الناتج عن سوء

طهوها، وقسوة قطع الباذنجان بين أسنانه لعدم نضجها جيداً على النار، فيدندن كلمات أغنية الفيلم، كلما فكر في زوجته. «وداع وداع وداع . . وداع من غير فراق».

أليس هذا ما حدث له مع دجلة، وداع من غير فراق؟ تساءل حسين وهو ينفض التراب عبثاً عن ردائه ووجهه. وحين لمح من بعيد، جابر وياسين يقتربان من السيارة، حث الخطى نحوهما.

ـ مبروك حجي، طلعتو النفط؟

علق ياسين ساخراً من منظر حسين، ثم ناوله قنينة ماء بارد، وابتسم جابر مشفقاً وهو يغطي فمه بباطن كفه اليمنى، متحاشياً أن تلتقي عيناه بعيني حسين. تحدث ياسين بعد فترة قائلا إن الفتاة الكوردية رحلت مع زوجها إلى السويد منذ سنتين، وإن دجلة لم تصل إلى هذا الشارع أو المنزل قط.

التفت حسين نحو المنزل، أدخل يده في جيب جلبابه، ثم ضحك. ارتجف جسده ولمعت عيناه، فوضع سبابته وإبهامه بين عينيه، وأغلق جفنيه. نظر إليه جابر بتعابير تتردد بين البكاء والضحك، فانفلت حاجباه وترهل خداه واختفت غمازته. واجه حسين فيما مضى الموقف المحير ذاته مع دجلة، حتى كان يضطر لسؤالها صراحة في بعض الأحيان، إن كانت تقهقه أو تبكي. سمع الاثنان صوت محرك السيارة يستيقظ غاضباً، فينفث دخانه الأسود الملتهب.

خرج ياسين من السيارة، تاركاً بابها مفتوح، وراح صوب صندوقها. أنزل جابر النافذة متذمراً من عطل المكيف، بينما عاد حسين إلى وضعيته ممدداً على المقعد الخلفي. سمع الاثنان صوت ياسين من الخلف يشتم، قبل أن يطبق غطاء الصندوق بعصبية:

ـ وهاي الفاكهة صارت مربى... حمّضت.

(24)

ـ اسمها وردية !

تمتم حسين، متحدثاً عن الفتاة الكوردية اليتيمة، مُطلقاً غيمة كثيفة من الدخان. تخلص من العقب الصغير العالق بين أصابعه، وشرع يلف سيجارة أخرى. رمقه علاء باستهجان، ثم سأل:

ـ وردية؟ على اسم المنطقة بسنجار؟

هز حسين رأسه بالإيجاب، ثم استطرد يشرح معنى الاسم بالكوردية، الجهة الجميلة، مدركا أن دجلة اختفت في الجهة الجميلة، أو في الطريق إليها. أذهلته المصادفة، وبقي يردد على مسمع علاء ويكرر ضاحكاً، مفارقة اختفاء الجميلة في الجهة الجميلة.

بعد زيارته لسنجار، أصبحت الساعات التي يكون فيها حسين منصور مستيقظاً قليلة جداً، يقضيها مقطباً، شارد الذهن، أو مستغرقا في نوبات ضحك متواصلة لا معنى لها، إذ صار منذ ذلك اليوم، بجرحٍ مفتوح تنفث فيه الذكريات لهيبها، تجتاحه أنصاف الحقائق، وكل ما حوله معلق ومشروخ.

نظر حسين في ساعة يده ليجدها الرابعة والنصف عصراً. سأله علاء عن جارتهم العجوز التي اختارت أن تفصح عن سر دجلة الآن، وعن أسباب صمتها الطويل كل تلك السنين، ومعنى اختيارها هذا الوقت بالذات، فلم يعقب بداية، ثم قال إن العجوز إنما أرادت التخلص من عبء سرٍ ثقيل، قبل أن تواجه حاكماً عادلاً سريع الحساب، أو أن هذا ما عللت به حديثها. اقترح علاء أن يصطحب جابر إلى تلك العجوز مرة أخرى، فقد يكون العنوان في سنجار جديداً، أو تكون القصة ملفقة، أو ربما في الأمر تفاصيل خفية.

ظل علاء يعدد أسباباً أخرى بوجهه الصارم، إلى أن اقتنع حسين أن لا حل آخر سوى بالعودة إلى نقطة البداية، ليعرف ما حل بزوجته، يوم اختفائها، وإلا بقي أمر دجلة لغزاً، وبقي هو الرجل المثير للشفقة، الذي هزمته الحقيقة فاستعصى عليه التصديق.

التفت علاء نحو درجات جامع النبي يونس ومناراته. رفع قبعته الخضراء بيد، وحك رأسه الأخرى، قبل أن يعيد القبعة لتستريح على رأسه بشكل أنيق. تأمل الأسلاك البيضاء الطويلة التي تتخللها الإنارة الملونة، وهي تلتف حول الأعمدة والنخل، ثم منارات الجامع، وتتدلى كعناقيد ريانة من نور. بعد ساعات، تغرب الشمس فتشرق من الجامع عشرات الألوان المضيئة كالنجوم على أهل الموصل، تحدثهم بلغة لا صوت فيها أو كلمات، وتخبرهم

أن أمورهم ستؤول إلى خير، طالما أن لهم سقفاً من صلاة ومعجزات.

استعد حسين للعودة إلى الجامع ليُشرف على أعمال الزينة، حين لمح هو وعلاء المؤذن أبو أميرة قادماً. لم يكن من السهل التملص من لقائه وقد رآهما، فابتسما بلطف. بعد تحية متعجلة، بدأ أبو أميرة بتوبيخ حسين على تخلفه عن الإشراف على أعمال زينة الاحتفالات بيوم الإسراء والمعراج، ثم لكز كتفه يمازحه حين لمح الوجوم على وجهه ووجه علاء. أخرج أبو اميرة من جيبه علبة سجائر سحب منها واحدة، ثم قدمها إليهما، فشكراه دون أن تترك يدا أحدهما جيبه. أشعل أبو أميرة سيجارته، ثم سأل حسين عن الأرض التي يعمل على إعادتها إلى أصحابها من السيدة التي تسكنها دون وجه حق، فذهل الاثنان. نظر حسين إلى علاء يلومه على إفشاء سره، فرسم الأخير الصليب بحركة من إصبعه ليقسم بأنه لم يخبر أحداً بالأمر. أطرق حسين لبرهة، ثم رفع رأسه وأخبر أبو أميرة أن لا جديد في الأمر وأن السيدة ما زالت ترفض التفاهم وترك الأرض ما لم تستعد أرض أهلها في البصرة، فضحك أبو أميرة حتى تشردق بسعاله وسقطت سيجارته من بين أصابعه، فداس عليها ومسح الدمع المتكوّم في عينيه. قرّب رأسه الصغير كبيضة من رأس حسين بحيث أصبح من الصعب على علاء أن يسمع كلماته، سعل غصبا عنه فاعتذر، ثم همس:

ـ يجيبولك الأرض بأسبوعين.. ثلاثة أسابيع إن كثرت.

تراجع حسين خطوات، اقترب علاء منهما، فابتعد أبو أميرة وأشار لحسين أن يتبعه. اعتذر حسين من علاء، قبل أن يتبع أبو أميرة مهرولاً. صعدا درجات الجامع، توقف أبو أميرة واضعاً كفه على صدره الذي ارتج بعنف، فأشفق عليه حسين الذي انتظره حتى تخطى بضع كحات إضافية، ثم عاد يستكمل حديثه.

اقترح أبو أميرة على حسين التعامل مع عصابة عُرفت بإرجاع الحقوق إلى أصحابها. التفت حسين إلى حيث وقف علاء، وقد فهم السبب الذي منع أبو أميرة من الافصاح أمام صديقه العسكري. أخرج مسبحته الكهرمان، ثم راح يستمع إلى أبو أميرة يصف بطولات تلك المجموعة التي لا تؤذي أحداً. ابتسم حسين نصف ابتسامة، ثم قطب حاجبيه ونهر أبو أميرة على فكرته، قبل أن يبتعد تاركاً المؤذن غارقا في نوبة سعال.

أسرع حسين في مشيته، وبقي طوال النهار يطرد أبو أميرة وكلماته وصورة الأرض من رأسه. إلا أن صورة الأرض عاودت زيارته كحلمٍ تطول فيه زهرات عباد الشمس، ترتفع سيقانها الخضراء الوبرية نحو السماء، وتبقى ترتفع حتى تجتمع رؤوسها وتصنع شمساً ضخمة يكاد الضوء يتفجر منها سائلاً كالعسل الذهبي.

بعد يومين من تكرار الحلم، أخبر حسين جابر باقتراح أبو أميرة، مستهزئاً بالفكرة، ففاجأه شعور الخفة التي اكتنفت روحه بعد أن لفظ الكلمات التي غادرت رئته، ثم حنجرته، بحركة

عكسية سريعة كالقيء. رحب جابر بالفكرة دون اعتراض، فشكّك حسين في أن يكون جابر هو من أخبر أبو أميرة بحكاية الأرض. تململ حسين حائراً، من دون أن يواجه جابر بشكوكه، بينما راح جابر يقص عليه ما يعرفه عن طرق عمل هذه العصابات التي يستعين بها كثر.

هز حسين رأسه موافقاً، بتردد وخوف، فقابلته السعادة تلمع في عيني جابر. سأل حسين جابر بلهفة عن ضرورة عدم تعرض أم جواد، أو أي من أبنائها، للأذى، فضحك جابر واصفاً إياه بالساذج طيب القلب، ثم أكد له ذلك.

ـ خليها عليَّ . . أنا أجيبهم.

فتح حسين ذراعيه كمن يتثاءب بجسده، مرتاحاً كما لم يشعر منذ أمد. لقد بدأت العُقَد أمامه ترفع رايات الهزيمة وتستسلم طائعة، وحتى في أحلامه، أخذت دجلة والأرض تقتربان. رن هاتفه مهتزاً في جيبه، محرّكا حبيبات الكهرمان من حوله كأسنان تصطك، فسحبه ثم ابتعد معتذراً من جابر. أجاب دون أن يقرأ اسم المتصل على الشاشة، ففاجأه صوت يحيى يسأله عن تطورات أرضه. حمد حسين ربه على توقيت اتصال يحيى، فلو اتصل بوقت أبكر لما وجد حسين ما يخبره به. طمأنه بتفاؤل، مستعيراً عبارة أبو أميرة وأسلوبه، «كلها أسبوعين . . أو ثلاثة أسابيع إن كثرت».

(25)

استيقظت رباب قبل أولى صيحات الديك، وقبل أن يذوي الظلام في نور يوم جديد. استيقظت وهي تظنه الأمس، دعكت وجهها بصابونة زيت الزيتون النابلسي حتى احمرت بشرتها السمراء، ثم أسنانها بالمعجون جيداً، حتى بللت كميها وجزءاً كبيراً من قميصها. لفت شعرها أربع لفات، ثم جمعته على شكل كرة كبيرة أخفتها تحت شال أسود لماع أحكمت تثبيته حول رأسها بالدبابيس. فتحت محفظتها تتأكد من المبلغ الذي تحمله، ثم ارتدت عباءتها السوداء الطويلة وركضت على عجل لتلحق بأخيها سعد، من دون أن تتعثر بطرف العباءة، أو تصدر صوتا يوقظ أمها وأختها رقية.

نادت رباب على أخيها بعد أن وقفت خلفه، وتنحنحت دون أن يشعر بها. كان سعد واقفا بالقرب من باب الدار، حتى كاد أن يلتصق به، وإلى جانبه صناديق تظهر منها أطراف الخضروات والأعشاب العطرية وبعض ثمار الفاكهة. صاح الديك، فاختفى صوتها، وضعت يدها على كتف سعد تهزها، فالتفت بوجهٍ مطفأ الملامح وجسدٍ يرتعد، هامسا «حجية؟» لكنه ما لبث أن تدارك

خوفه حين وقعت عيناه على وجه أخته المتوجس، فابتسم وهو يلوك ورقة في راحة يده. سألته رباب عنها، فحشرها في جيب بنطاله وانحنى يحمل الصناديق. تذكر أنها طلبت منه أمس اصطحابها إلى السوق لشراء الأقمشة وبعض الأزرار والخيوط والإبر، تأمل خديها المتهدلين والظل الجاثم على جفنيها وتحتهما. أخرج الورقة من جيبه، فأخذتها منه وفتحتها وهي تحل تجاعيدها بمسحة من أصابعها.

ـ رسالة تهديد؟

لم يسمعها سعد جيداً بسبب توالي صيحات الديك، إنما فهم ما قصدته، فهز رأسه بالإيجاب. مزقت رباب الرسالة فالتفت سعد غاضباً ينهرها. أسرعا بالخروج من المنزل، وهي تحشو جيبها بقطع الرسالة، وتتبع خطاه السريعة.

لم يعتد أي منهما على الحديث عما يشغله أو يثقل قلبه، لذا فقد بقيت هموم كثيرة من همومهما مدفونة، كأمر أخيهما جواد ووفاة والدهما، وبعدها الأرض. تشتري رباب الأقمشة والخيوط وتصنع الشاي لزبونات والدتها، بينما يبيع سعد الخضار، وفي بعض المواسم، يحمل حقائب المسافرين في مطار الموصل. سألته رباب إن كان يتوجب عليهما إخبار والدتهما بأمر رسالة التهديد، فسألها سعد إن كانت تقدّر فعليا مدى خطورة هذه الرسالة. أشاحت رباب بوجهها تتجنب النظر إليه، وانشغلت

بتفاصيل الصبح من حولها. كانا يعلمان صدق والدتهما، ولا يعرفان غير هذه الأرض وهذا البيت وطناً.

منذ أن سمحت لها والدتها بالخروج لشراء مستلزمات الخياطة، تعلقت رباب ببهاء الشمس في كل شروق لها. ذات يوم، عادت أم جواد من السوق ظهراً، وهي تشتكي من آلام عظامها وقسوة شمس الصيف على عينيها الضعيفتين. جثت رباب على ركبتيها أمام والدتها تتوسل إليها أن تسمح لها بالخروج مع سعد إلى السوق، بدلاً عنها. تململت أم جواد، فأسرعت رباب تدلك قدميها الخشنتين بماء وملح، مكررة «يمه وي أخويه سعد.. وي سعد»، لتطمئنها. هزت أم جواد رأسها مرة، فانكبت رباب على يدي أمها تقبلهما سعيدة.

ظهر طرف منارة جامع النبي يونس من بعيد، التفتت رباب إلى أخيها تستوضحه، فأكد لها أن الشيخ حسين الذي زارهم آخر مرة بخصوص الأرض، يعمل بالفعل في هذا الجامع. زمّت أطراف عباءتها التي اتسخت بالطين فثقل وزنها، وخطر لها أن تتجه إلى الجامع للقاء الشيخ، لكنها ما لبثت أن تراجعت، حتى عن إخبار أخيها بالفكرة.

قضم سعد آخر أظفاره، ثم بصق بقاياه بعيداً. أنزل الصناديق، كشف أغطيتها، وجلس أمامها معتدلاً ينادي في السوق. ودعته رباب متوجّهة إلى دكاكين الأقمشة والخيوط، فاستوقفها ليخبرها

أنه وجد الرسالة مُلصقة على الجهة الداخلية من باب الدار. شهقت، ثم كتمت بيدها فمها وهي تتلفت حولها. أرعبتها فكرة وصول العصابة إلى جوف منزلهم، فأصرت أن يُخبر سعد والدتهما بأمر الرسالة، لكنه رفض، وعاد ينادي على المارة، معدّدا أسماء الخضروات والأعشاب، بصوت أزعجها أكثر من صيحات ديكهم هذا الصباح.

وقفت رباب غاضبة أمام أخيها الذي انشغل عنها مع أحد الزبائن. بدت كطيف يتوسط السوق إذ طال وقوفها حتى الزبون الثاني والثالث، وسعد لا يرفع عينيه صوبها. مسحت بعض الرشح من أنفها المحمر، وتركت دموعها ترطب خديها دون أن تكترث. تذكرت قصاصات الرسالة في جيبها، فابتعدت مسرعة. رفع سعد رأسه بعد أن أكمل عد القطع النقدية في راحة يده، فلمح عباءتها السوداء تذوب بين أجساد المارة وسط الزحام.

عادت رباب إلى المنزل قبل العصر بساعة. توقفت مباشرة بعد أن فتحت الباب، ولم تستطع الدخول رغم الإرهاق الشديد. تراءى لها أنها تسمع صوت أحذية العصابة تدوس صحن الدار. تخيلت نفسها نائمة، بينما يغتصب الملثمون الصمت بأزيز أسلحتهم. اقشعر جسدها رعباً من الفكرة، فاحتضنت نفسها بذراعيها، ولمت شفتيها تعض عليهما. سقط منها أحد الأكياس، فقفزت على أثر الصوت، رفعت رأسها، فوجدت أمها واقفة أمامها

تتأملها. سألت أم جواد ابنتها عن سبب تأخرها فلم تجب. اقتربت منها، فلاحظت الرعشة في يديها وشفتيها.

ـ وين رسالة التهديد؟

نظرت رباب إلى أمها، مذهولة، لا تقوى على الكلام. جلست أم جواد على الأرض، سندت ذراعاً على وسادة، وفركت بالأخرى ركبتيها الممددتين أمامها. انتظرت رد ابنتها التي لم تفعل سوى ملاحقة حركة والدتها بعينيها المتسعتين. صمتت الوالدة دقائق شديدة الطول، ثم أخبرتها أنها تلقت مكالمة تهديد، أشار خلالها المتصل الى أمر الرسالة. خرجت أم جواد عن هدوئها المصطنع، ثم نهضت بصعوبة تنهر ابنتها التي ابتلت وجنتاها وذقنها، دون أن يصدر عنها أي صوت.

ـ تخبلتو.. إنتي وسعد، عبالكم تمشوني على كيفكم؟

صرخت أم جواد غاضبة، فجاءتها رقية تركض مذعورة. تعلقت بذيل رداء والدتها التي بدت أكثر صلابة من أي وقت مضى، وأشد عزماً من اليوم الذي حملت فيه السكين لكي تطرد العميد الوقور، أبو ثامر، ومن معه. أخرجت رباب أجزاء الرسالة من جيبها، وقدمتها لوالدتها بيدٍ ترتجف. لملمت أم جواد القصاصات، ثم فرشتها أرضاً تحاول فهم ما جاء فيها.

ـ خلينا نترك لهم الأرض

همست رباب، بعد أن استجمعت شجاعتها بدخول سعد إلى

المنزل. رفعت أم جواد عينيها إلى ولديها، جمعت قصاصات رسالة التهديد، وحملتها إلى المطبخ حيث أشعلت فيها النار. تأكدت جيداً من احتراقها، قبل أن تفتح على رمادها الأسود المتكدس صنبور المياه.

(26)

أحبت مليكة شكل المصابيح الكهربائية التي تزين جامع النبي يونس في النهار، أكثر منها في الليل. تخيلت الكرات كمثرية الشكل، منثورة كعِقدٍ سماوي حوله، شفافة، حبلى بالضوء الأصفر القوي تغدقه الشمس عليها، فيبدو الجامع جنة معلقة وسط نجمة صغيرة لامعة.

استغرب حسين حضور مليكة المفاجئ إلى الجامع، وعدم طلبها مساعدته هذه المرة. وقفت تحييه بابتسامتها الجميلة وتسأله عن أرض زوجها، فطمأنها بثقة. أصبحت لهجة مليكة أكثر وضوحاً وأسهل فهماً على أذن حسين. أيضاً، لاحظ أنها غدت تقترب في هندامها وحركتها وخطواتها، من فتيات الموصل.

شاهد حسين جابراً يقترب منهما بعد أن خرج من بوابة الجامع الرئيسة، فحياه مرحباً، ثم أشار إلى يساره.

ـ مليكة.. بنتي.

اتسعت عينا مليكة، مستغربة موقف الشيخ حسين، وكست وجنتيها حمرة خجل خفيفة. ابتسمت لجابر تحييه دون أن تمد

يدها هذه المرة، بعد أن تذكرت أول لقاء لها بالشيخ. رمق جابر مليكة متعجّبا، فلم يكن حسين قد ذكر من قبل هذه الابنة التي لا تشبه زوج أخته المرحومة، ثم ابتعد قائلا إنه سينتظره عند الرصيف المقابل لدرج الجامع. تمهل في هبوط الدرجات المائة والثمانين وهو ينبش ذاكرته عن ذكرى للفتاة، كما تتفحص الدجاجة التراب، فلم يجد أي أثر لها.

اعتذر حسين لمليكة عن عدم مرافقتها، فطمأنته أنها هنا اليوم لزيارة الجامع، لا أكثر. سألته مازحة إن كان جابر أخا زوجته بالفعل، أم أن الأمر أشبه بأبوته لها، فضحك. وضح لها أن جابر هو الأخ التوأم لدجلة، ثم استكمل يحكي قصة اختفائها، إضافة إلى التفاصيل التي حدثت منذ أكثر من عشرين عاماً. أنصتت مليكة إلى نبرته العميقة تحكي عن الجارة العجوز والطفلة الكوردية اليتيمة، بقيت مأخوذة بالحكاية التي تدفقت صورها كشريط فيلم سينمائي، مكتفية بهز رأسها وببعض عبارات المواساة، دون تعليق أو إبداء رأي.

ختم حسين كل عبارة في حديثه إليها، بـابنتي، فأشرق وجهها بابتسامة رضا كلما تكررت الكلمة، لكنها ترددت في مناداته بـأبي. «مسكين هذا الشيخ»، حدثت نفسها، لم يعد غامضاً أمامها، فقد رأته ضئيلاً، واهناً، يتشبث بقشة من أحلام بعيدة، الأرض وزوجته. تذكرت والدها فتساءلت إن كُتِب في قدرها أن تصادف رجالاً سكنهم الماضي ولا شيء غيره.

تأخر حسين على جابر، فودّع مليكة وأسرع يهبط الدرج. نادته قبل أن يصل إلى منتصفه، فاستدار راجعاً. أبعدت سبابتها عن شفتيها المطبقتين، ثم همست:

ـ اسأل الشوفير لي وصلها هذاك النهار

استوعب حسين نصيحة مليكة، بعد ثوانٍ خرساء أعقبت جملتها، فشكرها ولحق بجابر راكضاً.

عدلت حقيبتها الطويلة على كتفها، ثم نقلتها إلى الأخرى. حشت في جوف شالها خصلة شعر سقطت على جبينها، ووقفت في عتبة الجامع. نزعت حذائيها، فلامست قدماها حرارة المرمر. أسرعت إلى داخل غرفة القبر، تقفز إلى حيث فُرش السجاد، ثم جلست تحاول تخيل ملامح دجلة زوجة حسين. تساءلت إن كانت تشبه توأمها جابر، أو إن تشبهه اليوم بعد أن تجاوزت الأربعين، لكنها استبعدت أن تكون ما زالت على قيد الحياة أصلاً. قطع تفكيرها صوت اهتزاز هاتفها المحمول، على أثر تلقي رسالة من يحيى. فتحت الرسالة بفضول ولم تفهم شيئاً من العبارة المقتضبة التي يطلب فيها منها التعجيل بالعودة، وشيئا آخر بخصوص مكالمة لهما من السفارة الفرنسية.

(27)

لم يتساءل حسين منصور عن دجلة مطلقاً، ولم يشكك للحظة في حقيقة وجودها بين الأحياء، فلم يشعر بالحاجة إلى تخيل شكلها اليوم، هي التي لم تغادره ساعة؟ جلس ملاصقاً لكتف جابر أمام العجوز التي بدت أفضل صحة من المرة السابقة. ضحكت بصوت تثقل نبرته آثار الدخان ويشوّهه البلغم. وصفت تحسن حالتها بشرارة الصحة الأخيرة التي تسبق الموت:

ـ مثل فتيل الشمعة.. يعتلك قبل لا ينطفي

سألتهما عن حالهما بلطف، ثم أطلقت زفرة تشبه خربشة الأظافر على قطعة زجاج. دخلت السيدة الستينية التي التقياها في زيارتهما الماضية، تغطيها عباءتها. وضعت صينية الشاي جانباً، ثم انصرفت مسرعة. وجهت العجوز كلامها إلى جابر تسأله عن الشيخ الجالس إلى جواره. قطب حسين جبينه وذكرها بقرابته لجارتها دجلة. أحنت العجوز رأسها تمسح عينيها اللتين تبرزان بصعوبة من رأسها، وترحمت على روح تلك الشابة الطاهرة.

نظر حسين باستهجان إلى جابر الذي أخذ يذكر العجوز بما روته لهما سابقاً عن اختفاء دجلة. نهض مقترباً يمد لها ورقة

العنوان، وصورة اليتيمة الكوردية. أبعدت رأسها دون أن تلقي نظرة على الورقتين، ثم أشارت إلى جابر بأنها لم تعد ترى سوى الضباب منذ تجمعت المياه الزرقاء في عينيها. اقترب حسين لعلها ترى ملامحه بشكل أوضح فتتذكره، لكن دون جدوى.

أعاد جابر عليها قصتها عن دجلة. جلست العجوز القرفصاء على سريرها تحيط بها وسادتان عظيمتا الحجم، لتسنداها من السقوط. وضعت يديها المجعدتين حد التآكل في حضنها، وأنزلت رأسها. بدت كجثة تتحلل. رفعت رأسها وابتسمت لجابر حين أنهى حديثه، وسألته بسعادة إن كان كلامه يعني أن دجلة العزيزة لا تزال على قيد الحياة.

نهض حسين نحوها، أخذ المصحف من الرف فوق سريرها وقدمه لها. «احلفي!»، أمرها قائلا، فنهض جابر من مكانه يراقبهما بفضول. كرر حسين طلبه بأن تُقسم بعدم معرفتها بما حدث لدجلة يومها، ارتفع صوته، فدخلت السيدة الستينية الغرفة تولول، ثم تراجعت عندما أدركت أن صراخ حسين لم يكن إعلاناً عن وفاة العجوز.

بقي حسين ماداً يده بالمصحف، وبقيت العجوز صامدة كتمثال من رخام، قبل أن تنفجر بالبكاء وتتوالى شتائمها على حسين الذي ترك المصحف إلى جانبها، ثم خرج غاضباً، يتبعه جابر والسيدة الستينية.

تسمّر الثلاثة في الممر الخارجي، بينما استمرت الألفاظ النابية

ترتفع من غرفة العجوز. استغرب جابر أن تتلفظ عجوز على وشك الموت، بهذا الكم الهائل من الشتائم والألفاظ القبيحة، وبقي حسين واقفاً، تقيده الحيرة. توسل إلى السيدة الستينية التي أخفت وجهها بعباءتها خجلاً مما تسمع، أن تساعده، فحاولت أن تفيده ببعض ما تعرف، إلا أنها لم تفلح بذكر شيء مهم. تذكر حسين نصيحة مليكة، فسألها إن كانت تعرف السائق الذي أقلَّ دجلة إلى سنجار. رفعت السيدة عينيها إلى السقف، وفركت أصابع يديها، قبل أن تنهي صمتها بالنفي.

كتب حسين رقم هاتفه على ورقة طواها، ثم أعطاها إياها بعد أن طلب منها البحث عن السائق. وعدته خيراً، ثم ودعتهما قبل أن تسرع متجهة إلى غرفة العجوز بعد أن خمد صياحها.

خرج جابر وحسين، ومشيا بمحاذاة رصيف الشارع المقابل. أدرك جابر خطورة قصة اختفاء شقيقته، بعد تصرف الجارة العجوز اليوم، فاقترح على حسين أن يستعينا بالعصابة ذاتها التي تساعدهما في أمر الأرض، للعثور على دجلة. أصر حسين على أنها مجرد علامات هذيان من عجوز خرفة، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من العودة إلى موضوع الأرض وأم جواد ومليكة. تداخل الحلمان من جديد في رأس الشيخ حسين، فلام نفسه على مطاردة أمنيات كالسراب. أراد حسين أن يجيب على اقتراح جابر بسؤالٍ سكن رأسه، فاستنزفه كصداعٍ مزمنٍ يحفر جحوراً بين أذنيه وذاكرته. تردد صدى السؤال في حلقه: ترى، هل كان ما يجري له جزاءً

عادلاً لما اقترفه بحق أم جواد؟ تساءل، ولم يجرؤ على مفاتحة جابر بالأمر.

بعد أن قطعا الشارع، وصلا إلى منزل جابر، فدعا الأخير حسين إلى الدخول. وقف الشيخ متردداً، ثم شكر جابر، متذرعاً بتأخره على زيارة والدته، طالبا منه أن ينقل تحياته إلى ابنته مروة. وعده جابر بذلك، طلب منه الانتظار، واختفى مسرعاً إلى داخل الدار.

أرهق الشك حسين طوال السنوات العشرين الماضية التي قضاها دون أي دليل يرشده إلى مصير زوجته. لذلك، رغب اليوم أن يطمئنه جابر بنهاية سعيدة تنتظره ودجلة. لكن جابر لم يفعل، ولم تفعل العجوز، أو السيدة الستينية، حتى حِسه القوي بدجلة بدأ يخونه.

خرج جابر ثانية يحمل طبقاً مستديراً كبيرا، مغلفاً بالقصدير الفضي اللامع. أخذه حسين خجلا، بعد عدة محاولات من الاعتذار والرفض. طلب جابر منه انتظار مروة، إذ كانت ترغب في رؤية عمها حسين والاطمئنان إليه. رحب حسين موافقاً، فوقفا صامتين حتى أطلت مروة بنصف جسدها من باب منزلهم، وحيت حسين. كانت تغطي رأسها بإزار الصلاة المولوء برسومات الأزهار الملونة، وتزين معصميها بأساور رفيعة من الذهب.

هلا بعروستنا، حياها حسين، فألحت عليه أن يتفضل بالدخول، وأصر جابر مؤيداً ابنته، لكنه تراجع معتذراً منهما بلطف.

(28)

مسحت رباب أرضية المطبخ بطرف ردائها وهي تقطعه ذهاباً وعودة، بحثا عن شيء تعده للغداء. فتشت في الجوارير، فلم تجد غير أوعية فارغة، وثلاجة لا تحتوي إلا على بيضة وقنينة حليب ونصف ليمونة. على الرف، مرطبان سكر وملح، إلى جانب وعائي شاي وبابونج، ثم آنية ماء صغيرة. لم يتبقَ لأسرة أم جواد مالاً يبتاعون به الغذاء، أو أي من حاجيات المنزل، منذ حادثة سعد في السوق قبل أسبوع، حين عاد بصناديق خضار وفاكهة مدهوسة، وبعدها بيوم واحد، رجع بيدين خاليتين من البضاعة والمال، وقد بقيت الثمار يومها تفترش الطريق، بعد أن قذفت سوائلها عصارةً لزجةً.

تمدد سعد على سريره دون حراك، منذ البارحة. لم ينهض لتنظيف أسنانه أو وجهه، ولم يغتسل منذ أسبوع. أبقى باب غرفته موارباً، بحيث يمكنه مراقبة والدته تقطع الصالة بحركة هستيرية. وقفت أم جواد أمام النافذة، عدلت من وضع عباءتها، ثم خرجت إلى الحديقة، فالشارع. عادت بعد دقائق بوجه أكثر شحوباً، وعينين غائرتين مطفأتين. جلست على سجاد الصالة، ثم عادت

تكرر طوافها بتوتر. توالت رسائل التهديد والمكالمات بعد الرسالة الأولى التي وجدها سعد ورباب، فأخفتها أم جواد عنهما. سرى الخوف في عينيها، فتشكل ضباباً يحجب الرؤية، ثم سكنت ذراعيها رجفةً تصعب معها الخياطة أو تطريز أي من القطع وتعديلها.

لاحظت رباب أن والدتها لم تسلم أو تستقبل أي طلبية خياطة جديدة منذ مدة، تحديداً من بعد زيارة الشيخ حسين لهم. في البداية، تكررت أخطاء أم جواد في تطبيق التصاميم، فكانت تقص أكثر من اللازم، أو تستخدم القماش الخطأ، أو تجرح أجساد زبوناتها بأطراف إبرها. فانسحبن الواحدة تلو الأخرى، اختفين مع اختفاء الأقمشة والخيوط وقطع الملابس غير المكتملة من الغرفة والصالة، فبقيت آلة الخياطة وحيدة هامدة، بكماء كصاحبتها.

كانت رباب في السوق، يوم زارتهم زوجة عضو البرلمان دون موعد مسبق. جاءت تستعجل أم جواد لإنهاء فستانها، حين قرر خطيب ابنتها التبكير بموعد العرس. وقفت السيدة أمام المرآة، فانعكست صورة جسدها المُحاط بطبقات دهون تتابعت كالأقراص المتورمة. تفحصت فستانها بعدم رضا. لوحت إلى أم جواد بذراعيها الثقيلتين شديدتي البياض، وهي تمسك بذيل الفستان. ارتفع صوتها على رنين أساور الذهب في معصميها يضرب أحدها الآخر، ففهمت أم جواد شكواها بصعوبة. قبضت على الذيل موضحة موضع الخلل وسحبته بقوة، فتمزق. لا تذكر أم جواد ما

حدث بعدها. لا تحتفظ ذاكرتها سوى بصوت رنين الأساور يزلزل بصداه جدران البيت، ثم بصوتها هي يعلو عليه. خرجت الصيحات من فمها وأنفها وأذنيها. فارت الكلمات من مسامها، فذابت صورة الزبونة الهاربة خوفاً، بعد أن لملمت هاتفها وحقيبتها راكضة نحو الباب. خرجت إلى الشارع حيث ارتدت حذائيها على الرصيف، والتقطت أنفاسها الخارجة بصعوبة بالغة من بين أكوام الشحم. تساءلت أم جواد فيما بعد إن كانت قد حملت مقصاً في وجه زوجة عضو البرلمان، وعن الكلمات التي طردت بها إحدى أهم زبوناتها.

مضى على موعد عودة رقية من المدرسة أكثر من ساعتين، قضتهما أم جواد ركضاً بين المنزل والشارعين الملاصقين له، تسأل الجيران وتراقب السيارات العابرة، بينما بقي سعد ممددا في غرفته، بلا حراك. خرجت رباب من المطبخ لتذكر والدتها بخلوه من الطعام، اصطدمت بها تزرع الصالة وتهمس بكلماتٍ غير مفهومة. دفعت أم جواد باب حجرة سعد، صرخت فيه:

ـ قوم.. اطلع شوف أختك وينها.. يا حيف على الزلم!

وقفت أمامه تلهث بانتظار ردة فعله، دون جدوى. نظر إليها سعد بعينين نصف مطبقتين، ثم رفع غطاء السرير يخفي وجهه. أمسكت أم جواد بطرف الغطاء وسحبته لترميه بعيداً. تكومت على طرف السرير بجواره، وقبضت على قميصه ترجوه:

ـ قوم يمه.. رقية تأخرت

وقفت رباب عند باب الغرفة المفتوح صامتة، تراقب دموع والدتها ولا مبالاة أخيها. لا صوت في الحجرة يعلو على أزيز مروحة طويلة تقف في الجهة المقابلة. تحدث سعد أخيراً. سأل أمه عن سر خوفها. أراد أن يستفزها وأن يدفعها للإفصاح عن مكالمات التهديد والرسائل التي أخفتها عنه طوال الفترة الماضية. غطت وجهها بيديها واهتز جسدها بقوة، فارتج جسدا سعد ورباب اللذين احتضناها. همست أم جواد في أذنيهما بما جاء في آخر مكالمة تهديد، كان الأمر يخص رقية.

أسرع سعد بالخروج للبحث عن أخته الصغرى. طلبت منه رباب وهي تتبعه مسرعة أن يتصل ليطمئنهما، ثم عادت تقطع الحديقة، فوجدت والدتها تتأهب للخروج على عجل. حاولت أن تثنيها، دون جدوى. دفعت أم جواد ابنتها بقوة لا يشي بها جسدها المعطوب الهزيل، ثم أسرعت بالخروج في اتجاه معاكس للطريق الذي سلكه سعد، بعد أن أوصت ابنتها بعدم مغادرة المنزل، تحسباً لأي اتصال من العصابة.

حملت رباب المروحة الثقيلة من غرفة سعد إلى الصالة بصعوبة. وقفت لتمسح عرقها وتتحسس موضعاً في أسفل ظهرها آلمها فجأة. شبكت المروحة بفتحة الكهرباء، واختارت زر الدفع الأكثر سرعة، بعد أن تخلصت من عباءتها وشالها. وقفت أمام شفرات المروحة المتسارعة، فاتحة ذراعيها، فتطايرت خصلاتٍ من شعرها حول وجهها، بينما أثقل العرق على بقية الخصلات

فبقيت ملاصقة لرقبتها وكتفيها. أدركت أنهم على مشارف شهر الصيام، دون أن يكون في جعبتهم لاستقباله غير لهيب الصيف وثلاجة خاوية. ربما سيكونون أيضاً بلا مأوى أو بلا.. تساءلت دون أن تستطيع إكمال الجملة.

دخلت المطبخ، وضعت إبريق الشاي على النار، وخرجت إلى الصالة تتأكد من أن الهاتف يعمل، ثم عادت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة فوجدتها دافئة، فخرجت من جديد إلى الصالة ولم تكن المروحة تعمل. ضغطت على أزرار الإضاءة، فأدركت أن الكهرباء قد قُطعت. أسرعت تُخرج البيضة والحليب من الثلاجة. وقفت حائرة تحملهما في حضنها ككنزٍ ثمين، يبدو أن آخر ما يملكون من طعام سيُرمى في سلة المهملات قريباً.

تسرب الظلام كلصٍ ملثم يحسب خطواته بحذر. ملأ منافذ البيت بوقاحة دون استئذان، فدب الرعب في قلب رباب. جلست في الصالة وحيدة بين المروحة الجامدة والهاتف الأخرس المتواطئ مع العصابة. حرصت على أن تُحكم إغلاق الباب بعناية، كما تفعل والدتها كل ليلة، وأبقت على جميع أزرار البيت في وضعية الإنارة لتنقذها من الظلام فور عودة التيار الكهربائي. جلست القرفصاء، تركت البيضة وقنينة الحليب في حضنها، بينما أشعلت أمامها شمعة ألصقت طرفها بقعر صحن استكانة شاي.

لم يستحضر نور الشمعة الضعيف أكثر من ظلالٍ متراقصةٍ على الجدران. خفق قلب رباب رعباً، فأشاحت بوجهها عن الأشباح

المحتفلة بانتصارها، وحاولت أن تشغل نفسها بالاتصال بوالدتها. أقلقها عدم رد والدتها وأخيها. ضغطت على زر إعادة الاتصال بسعد، بعد محاولة اتصال فاشلة بأمها. سمعت نغمة هاتفه تقترب، أعقبها صوت طرقٍ على الباب. أسرعت تفتح بعد أن تأكدت أنه أخوها.

نظر سعد باستغراب للطقوس التي اتبعتها رباب، ثم إلى البيضة والحليب بين ذراعيها.

سألها إن اتصل أحدهم، فسألته إن استجد أمرٌ بخصوص رقية، وكان جواب كليهما بالنفي. شعرا بالاختناق من حرارة الجو، إلا أنهما لم يجرؤا على فتح إحدى النوافذ. كرر سعد محاولة الاتصال بوالدته دون جدوى. ارتفع صوت أذان العشاء، فنهضت رباب تجلب سجادتيهما، وفرشتهما في منتصف الصالة، تتقدم سجادتها سجادة سعد الذي ترك هاتفه ليتوضأ. اهتز الهاتف وأنار جزءاً من الصالة، أكثر مما فعلت الشمعة. أسرعت رباب تجيب بلهفة بعدما لمحت اسم والدتها. جاء صوت أم جواد منهكاً متقطعاً تخبرها أنها في طريقها إلى الشيخ حسين في جامع النبي يونس.

ـ ماما بالتليفون؟

جاء صوت رقية ناعماً، مبتهجاً خلف الباب. جفلت رباب، فسقط الهاتف عن أذنها. ارتفع صوت أم جواد، فالتقطه سعد من الأرض يخبرها بعودة رقية سالمة. أسرعت رباب لتدخل اختها إلى الصالة. كانت تقف على عتبة الدار بمفردها. تأملت رباب أختها

الصغيرة بعينيها، بينما أصابعها تجوس وجهها وشعرها وجسدها. سألتها إن كانت بخير وعن سبب تأخيرها، وقبلتها على جبهتها وخديها وكفيها. مسح سعد وجهه المبلل ببقايا ماء الوضوء والدموع. ارتفع صوت الزغاريد من الهاتف، قبل أن تطلب أم جواد محادثة صغيرتها.

جلست رقية على ركبتيها المثنيتين بجوار الشمعة، ثم فرغت محتويات كيس بلاستيكي على السجادة فتناثرت قطع حلوى وألوان وملصقات كرتونية لامعة ودمى بلاستيكية صغيرة. حدثت رقية أخويها عن صديق والدها الذي أخذها بعد المدرسة في نزهة لطيفة، وعن الكعكة التي التهمتها كاملة دون أن يشاركها أحد، وعن غزل البنات الذي يشبه سحاباً زهرياً يتفتح على أعواد بيضاء، وعن المثلجات التي تُرسم عليها صور حيوانات محببة. استمرت رقية تروي تفاصيل يومها بسعادة. طلبت من رباب وسعد أن يصنعا من أيديهم أطباقاً مقعرة، ففعلوا. حملت بيمينها الصغيرة قبضة من الحلوى ووضعتها في يدي رباب المجتمعتين على شكل قارب، ثم كررت الشيء ذاته مع سعد، حتى انتهت من توزيع الحلوى عليهما بالتساوي.

بات الإخوة الثلاثة تلك الليلة إلى جانب حقائبهم، ينتظرون الفجر بفارغ الصبر، بينما بقيت أم جواد ساهرة. بعد أذان الفجر، سترحل تاركةً ولدها البكر وزوجها وصورة عروسٍ يافعةٍ تترك البصرة لتبني في الموصل وطناً جديداً. نزعت صورة المرحوم أبو

جواد من الحائط، ثم لوحة الإمام علي، وغلفتهما بعناية. في صندوق منفصل، وضعت آلة الخياطة وأدواتها، بالإضافة إلى بعض قطع الملابس. ملأت حقيبتها إلا من كل شيء، إذ لم تعرف كيف يمكن أن يُحمل الوطن في حقيبة. أرخت أم جواد جميع أقفال المنزل ثم كومتها مع المفاتيح والسلاسل أمامها. لا بد أن الساكن الجديد لن يحتاجها، فهي سترحل مصطحبة الخوف معها.

خرجت إلى الحديقة. بقي على شروق الشمس أربع ساعات، لم يكن التيار الكهربائي قد عاد بعد. زحفت أم جواد ببطء تتقدمها ذراعاها الممتدتان أمامها، دون أن تتمكن من رؤية شيء. لم تشعر بالحاجة إلى إشعال شمعة أو إلى إضاءة شاشة هاتفها المحمول، إذ لم يكن من داعٍ إلى ما يوضح لها تفاصيل أرضٍ تحفظها بقلبها أكثر من عينيها. تعوّد نظرها بسرعة على الظلام، فتحسنت رؤيتها لما حولها. انحنت تجلس على العشب، مدت يدها تقطف عود نعناع وتفرك أوراقه بين أصابعها ثم تشمه. قطفت أعواد ريحان وحملتها كباقة ورد عروسٍ على وشك أن تُزف. فتحت منخاريها وفمها ورئتيها تستقبل أكبر كمية ممكنة من النسيم الصيفي المعطر في حديقتها. قبضت على حفنة من التراب الجاثم تحت ركبتيها، قربته من أنفها، فتبلل بقطرات الدموع.

(29)

أسرع علاء ليلحق بحسين وقد غادر الجامع على عجلٍ، بعد المكالمة التي تلقاها من مليكة التي طلبت رؤيته في بيت أبو ثامر، حالاً. حاول أن يلتقيه منذ صباح يوم أمس، إلا أنه لم يتمكن من مغادرة نقطة التفتيش المكلف بحراستها. تواصلت ساعات عمله في الأيام الأخيرة، فلم تترك له المجال إلا لأربع ساعات نومٍ يومية أو أقل. تقهقرت الفسحة في حياته أمام اضطراب الوضع الأمني مع اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية. تعقدت طلاسم مشهدٍ تداخلت فيه الأصوات. الكل يصرخ، والعراق أخرس.

كاد حسين أن يتعثر إذ توقف فجأة حين سمع علاء يلفظ اسم دجلة. تذكر معلومات كشفتها له السيدة الستينية التي عاودت الاتصال به منذ أيام، حول السائق الذي أقَّل زوجته إلى سنجار يوم اختفائها. وعده علاء أن ينقب بناء على هذا الخيط الجديد، وانتظر حسين بنفاذ صبر وهو يشغل الساعات بالتفكير في دجلة، اعتكف فأزهرت خيالاتٍ متضاربة عن أحداث ذلك اليوم، جاء أغلبها مؤلماً.

رفع حسين ذراعه مشيراً إلى سيارة أجرة بالتوقف، فلم يجد

علاء بُداً من مرافقته. كان على الاثنين التزام الصمت أمام السائق، وعلى حسين انتظار الحقيقة بضع دقائق إضافية.

عند وصولهما، ترجلا من السيارة، وسارا ببطء نحو منزل أبو ثامر. هناك، اختار علاء كلماته بعناية، فبدأ حديثه بتذكير حسين بالوضع المُربك الذي كان سائدا في شمال العراق بعد حملات الأنفال في الثمانينيات. ظهرت في تلك الفترة جماعاتٌ تغتال قادة الجيش العراقي ومسؤوليه أو زوجاتهم، عبر التنكر في زي شرطة، على نقاط تفتيشٍ وهمية. هز حسين رأسه يوافق علاء، متنبّها إلى نقاط الشبه الكبير في ملامح عراقٍ مضى، وآخر يعيشونه الآن. الغضب ذاته والخوف والفقد. عادت جميعاً إنما بأقنعة جديدة.

في الطريق الذي سلكته دجلة ذلك اليوم، وقعت حادثة اغتيال لزوجة أحد ضباط الجيش في نقطة تفتيش قرب سنجار و. . . لم يكمل علاء. أسكته الحزن الذي أطلَّ من عيني حسين، فاختفى في حضرته كل إحساسٍ آخر. سأله حسين عن مصدر حكايته، فأخبره علاء أنها من رئيسٍ سابق له في العسكرية، طلب منه كتمان الأمر لسرّية تلك الملفات وخصوصية الحادثة، ثم وضع كفه على كتف حسين وابتسم بمرارة. أطرق حسين يخفي الدموع التي أغرقت عينيه، فذابت الصور والألوان من حوله.

طال وقوفهما أمام سور منزل أبو ثامر، فاعتذر علاء مودعاً، على أن يلتقيه لاحقاً في الجامع. طلب حسين إليه أن يتمهل، إذ

فطن للتو أن الدليل الوحيد الذي جاء به علاء هو تشابه زمن الحادثة وموقعها. هز علاء رأسه بالإيجاب، فلم يتم تسجيل أسماء من قُتِلوا في تلك الحادثة، ما خلا زوجة المسؤول وابنها وسائقهما الخاص، بالإضافة إلى ثلاثة أشخاص في سيارات منفصلة أخرى.

- يعني مو شرط تكون دجلة

- وممكن تكون دجلة، حجي

تأكد حسين أنه لن يتمكن من التخلي عن حلمه، دجلة. سيلتحم كعضو في جسده ويصبح من المستحيل اقتلاعه. هل يقطع الإنسان ذراعه؟ هل يفقأ عينه؟ أدرك أن قصة علاء هي أقرب تأويلٍ لما حدث، لكنه فضّل أن يتعلق بغياب اسمها من سجلات الشرطة، وبنقص الدليل. وقف علاء على مسافة رصيفٍ وخطوات ينتظر سيارة أجرة، فضغط حسين على زر جرس منزل أبو ثامر، ثم وقف ينتظر. ذكرته رائحة نسيم هذا الصباح بالصباحات حيث كان يرافق والده إلى المزرعة. سأله مرة عن عدد الزهرات في شتلة عباد الشمس، وأشار إلى واحدة أمامهما. دقق حسين النظر فيها وانتبه إلى خلو ساقها الخضراء الطويلة من أي فروع. لاحظ انتصابها كرأس أسدٍ مُضحك على رقبةٍ رفيعة، فكتم ضحكته بأن غطى فمه بيده، ثم رد بتأنٍ أنها زهرة واحدة. نزع والده نظارته السميكة، ونظف عدستيها جيداً بطرف ردائه، ثم رفع جسد ولده الضئيل على ركبته وبيده اليسرى قرب النظارة من عينيه. كبرت العدسة الزهرة، فبرز أمام حسين حشدٌ من رؤوس زهراتٍ صغيرة متلاصقة. «ألف

أو ألفين زهرة صغيرة في كل زهرة عباد شمس» علق والده، ثم أكمل «بس الناس ما تعودت تشوف. . إلا من بعيد».

حلَّت مليكة عقدة السلاسل الحديدية، ودفعت الباب ليدخل حسين. حيته وهما يسيران عبر حديقة المنزل، ثم توقفت أمام الدرجات المؤدية إلى الباب الرئيسي. طلبت منه أن ينتظرها، ثم أسرعت إلى بابٍ جانبي ما لبثت أن عادت منه، حاملة أصيصاً بنياً مملوءاً بترابٍ أسود.

لم يسألها حسين عن الهالات السوداء تحت جفنيها المنتفخين، أو شعرها المرفوع إلى الخلف بإهمال، أو بشرتها الباهتة كالأموات. وقفت أمامه ومدت ذراعيها بالأصيص، ثم سألته عن أول زهرة عباد شمس في العالم. احتار في معنى السؤال و في السبب الذي استعجلته من أجله الحضور. أخذ الأصيص منها ثم دقق النظر فيه، فلم يجد سوى تربة داكنة مخلوطة بسماد كريه الرائحة. كرر عليها سؤالها بفضول عن أول زهرة عباد شمس، فأخبرته بأنها كانت فتاةً إغريقية.

استرسلت مليكة تروي لحسين أسطورة إله الشمس أبولو الذي اعتاد الانتقال بعربته المصنوعة من الذهب الخالص والعاج كل يوم من قصره الشمالي متجهاً إلى الغرب. بعد الانتهاء من رحلته التي تستغرق نهاراً بأكمله، تعود أن يرجع من الغرب إلى قصره بقارب من ذهب. تتكرر رحلة هذا الإله الشديد الوسامة، ذي الشعر الذهبي كل يوم، ينشر عبرها النور والحب والسلام والحياة. أحبه

الجميع وأكثرهم حورية جميلة أخذت تراقبه كل نهار، حتى تعلقت به. أصبحت ترفع رأسها صوب السماء، فلا ترمش عيناها المسحورتان ببهائه. عشقت الحورية إله الشمس أبولو حتى لم تعد تقوى على عمل أي شيء آخر، عدا مراقبته كل يوم. لم يبادلها أبولو الحب، وبقيت هي تتابعه من على صخرة مرتفعة دون أن تأكل أو تشرب، لتسعة أيام متتالية. أشفق أبولو عليها وهو يراها تذوي وتموت، فقام بتحويلها إلى زهرة صفراء جميلة. يحكى أن هذه العاشقة بقيت وفية لحبه، تراقبه منذ شروقه إلى غروبه، كل يوم، كما تفعل جميع زهرات عباد الشمس حتى يومنا هذا.

ابتسمت مليكة وهي تنهي الحكاية، لكن لم تبتسم عيناها النديتان. أخبرت حسين أن في هذا الأصيص بذرة لإحدى أفضل فصائل زهرة عباد الشمس، طلبت منه أن يزرعها في أرضه التي سوف يحصل عليها يوماً. رجته أن يعدها بأن يتمسك بحلمه على عكسها ويحيى. رمقها حسين بنظرات استفهام، غير مدركٍ أي حلم تقصد. لم يجد ما يقوله من أثر الصدمة حين وقف يستمع إليها تخبره باتصال السفارة الفرنسية بهما منذ عدة أيام، وإيعازها لهما بمغادرة العراق فوراً لخطورة الوضع الأمني.

ـ شايف شحال صغيرة الأحلام نتاعنا

ضحكت مليكة وهي ترمق الأصيص بين كفي حسين الذي أحس بدفء التراب ونبض البذرة في رحم التربة الخصب، كجنينٍ ينام بسلام. إذاً هكذا سترحل مليكة؟ استغرب حسين بروده تجاه

الخبر المفاجئ، برغم تعلقه بها، فهل سيودعها ببساطة كما يفعل مع زوار الجامع العابرين؟ ربما، لكنه علم في مكانٍ عميقٍ من نفسه أن هذا الموقف أشبه بحلم سيستيقظ يوماً منه، فيستوعب جيداً ما جرى. سيحزن على فراقها لاحقاً، عندما تبرد الصفعة وتبدأ آثار الكدمات فوق جرحه بالظهور.

طلبت مليكة من حسين الدخول إلى صالة المنزل، إذ ينتظره يحيى وأبو ثامر والبقية، للتشاور معه بخصوص الأرض. لم يكن حسين قد اتصل بالعصابة أو بأم جواد مؤخراً، لذا فهو لم يكن يملك أي معلومات جديدة، كما لم يكن متأكداً من رغبة أبو ثامر بالأرض بعد خبر مغادرة يحيى ومليكة.

دخل حسين الصالون دون أن تفارق عيناه حلمه الذي يغفو بين ذراعيه، بينما بقيت مليكة واقفة في الباب. لقد سرّها أن تودع الشيخ حسين بطريقتها، دون كلمة وداع، وأن تشكره دون كلمة شكر.

(30)

مر على سفر يحيى ومليكة شهرٌ كاملٌ، لم يتلق أبو ثامر خلاله سوى اتصال واحد، يوم وصولهما إلى مطار شارل ديغول بباريس ليطمئناه، تلاه بريد إلكتروني تخبرهم فيه مليكة أنها حامل.

اكتشف حسين مغادرة أم جواد وأبنائها الأرض، إلا أنه لم يتمكن من تحديد يوم رحيلهم، كما لم يعرف إن كان السبب تهديدات العصابة، أو نزوح الشيعة والأكراد والأيزيديين من الموصل بعد الأحداث الأخيرة. خسر حسين نصف المال الذي ادخره لشراء الأرض، مقابل خدمات العصابة، دون أن يدخل في تفاصيل ما جرى بينهم وبين أم جواد. لم يرغب بأن يعكر صفو ضميره، فتمسك بموقفه الذي اختاره من البداية حين قرر ألا يسأل أو يدقق، وألا يهتم سوى بالنتائج.

انقطعت أخبار مليكة عن حسين، كما انقطعت اتصالات أبو ثامر. انفض جميعهم عن الأرض، فبقيت وحيدة خاوية، بجدران متصدعة وحشائش اصفرت واحترقت تحت وطأة شمس تموز القاسية.

اطمأنت بسمة إلى نوم هادي، بعد أن نزعت عنه جوربيه

وغطته. أرخت الستائر منعاً لدخول أي خيطٍ من شمس الظهيرة، ثم أغلقت باب الغرفة بهدوء، وغادرتها على أطراف أصابع قدميها، متجهة إلى المطبخ. تناولت قطعة من الورق الشمعيّ الذي سبق وقصته على شكل دائرة، فصنعت منه قمعاً حشته بالكريما البيضاء، وبدأت بتزيين الكعكة. أضافت أنصاف قطع كرز حمراء على أطرافها، ثم غرست في المنتصف شمعة تحمل الرقم خمسة. غطت الكعكة بعد أن رفعتها على الرف، حتى موعد الاحتفال بعيد ميلاد هادي مساءً، ثم انتقلت تساعد أم ثامر في إعداد طعام الإفطار.

فرد أبو ثامر قدميه على الأريكة أمام التلفاز منتشياً، فقد انتظر وبفارغ الصبر، نوم هادي منذ ساعات. لم يعد يطيق حركة حفيده الصغير مؤخراً، ولا عاد بإمكانه تحمل ضحكاته الشقية، أو لُعبه المنتشرة في أرجاء الصالة طوال الوقت. ألا تكفيه مشقة ساعات الصيام الطويلة في حر الصيف؟ ألا يراعي أحد في هذا البيت إحباطه، بعد أن أُجبر على الاستقالة من عمادة الكلية بسبب الأحداث الأخيرة؟

توالت ضغطات إصبع أبو ثامر على زر جهاز التحكم عن بعد، تنفس بارتياح وهو يغير قناة الأطفال، ثم رفع صوت مذيع نشرة الأخبار. تابع مشاهد الدبابات والمسلحين الذين تطوقهم أعلام سوداء، تبعتها مشاهد طوابير النازحين، ثم آثار مساكن ومحلات خالية أو مبعثرة إلى أشلاء. تتابعت صور لأطفال بملابس رثة

يبكون، وجوههم المبقعة بحروق الشمس، وشعورهم القذرة المتخشبة كأنها لم تلامس الماء منذ أزل.

مدت أم ثامر رأسها من المطبخ غاضبة، تطلب من أبو ثامر أن يُخفض صوت التلفاز لكي لا يستيقظ هادي. تأفف أبو ثامر وقد خاب ظنه في أن يمنحه نوم حفيده مساحة من الحرية، أغلق التلفاز ورمى بجهاز التحكم عن بعد على الأريكة، ثم نهض غاضباً إلى غرفته حيث قرر أن يخلد للنوم، حتى يحين موعد الإفطار.

دخل ثامر إلى البيت بحذر، يتلفت عن يمينه وشماله، مخفيا كيساً بيديه وراء ظهره. نادى زوجته بسمة، فأسرعت تخرج من المطبخ إلى الصالة تحييه وتطلب منه أن لا يصرخ، فابنه ووالده نائمان. تناولت بسمة الكيس من ثامر، فتحته وقلبت ما به، ثم رفعت رأسها بخيبة وضيق. لم تكن هذه هي الهدية التي أرادها لهادي في يوم ميلاده، ولم تكن هذه هي الطفولة التي تمنياها لبكرهما ووحيدهما.

حمل ثامر الكيس إلى الغرفة ليخبئه. فتح الباب، محاولاً تجنب أزيز مساميره القديمة، صوت خطواته، وخشخشة الكيس. لم يجد هادي على سريره. هرع ثامر يبحث عنه في الصالة والمطبخ والحمام، وحتى في غرفة والديه والحديقة، لكنه لم يجده. تأكد أن باب الحديقة المفضي إلى الشارع لا يزال مقفلاً، ثم تذكر أنه طلب من هادي الابتعاد عن سطح المنزل والحديقة والشارع، في الشهر الماضي، كل يوم تقريباً. قرص أذنه الصغيرة

وخده الرقيق، كي يبقى يتذكر، فلا يجرؤ بعدها على عصيان أوامره.

صعد ثامر السلالم إلى السطح ركضاً. وجد هادي واقفاً على قطعٍ من الطابوق، يتجاوز رأسه طرف حائط السطح. لم يلحظ الصغير دخول والده وهو يراقب أسطح المنازل والمارة في الأرصفة، تعلوهم أعمدة الإنارة المتصلة بمجموعة من الأسلاك السوداء المتشابكة. كتم ثامر ضحكته بصعوبة لوداعة المنظر، أخرج هاتفه المحمول من جيب بنطاله وفتح الكاميرا. أمسك الهاتف بالعرض بكلتا يديه، وشغّل اختيار تصوير الفيديو.

على الشاشة، بدا جسد هادي الضئيل من الخلف، ومن خلفه مدينة الموصل الصائمة يزينها النخل. كانت الشمس تتوسط السماء بجلال، وترتفع بسنتيمترات فقط عن منارة جامع النبي يونس. نَفَرَ سربٌ كبيرٌ من الطيور في السماء فجأة، ثم اختفى في الأفق. ساد الصمت ثوانٍ قصيرة، قبل أن يمزقه صوتٌ كالرعد. ارتجت الأرض، فوقع هادي أرضاً، بعد أن اختل توازنه. غطى أذنيه بيديه الصغيرتين وبكى. ارتفعت طبقات كثيفة من الغيوم الصفراء والبنية والرمادية من خاصرة المنارة. اختفى الجامع. اختفت السماء.

هرع هادي باكياً، مرتجفا، نحو والده ما أن رآه، شد طرف قميصه متوسلاً: آسف بابا بعد ما أصعد للسطح.. آسف. تحركت ذراع ثامر للأعلى والأسفل بتأثيرٍ من حركة هادي، دون أن يُفلت الهاتف أو يوقف التصوير. لم يرمش جفناه، لكن عينيه لم تتمكنا

من استيعاب ما يجري. لم يسمع بكاء هادي، كما لم يلاحظ بُقعة الدم المتفجرة من كوعه والأخرى التي تلطخ ركبته.

اختفت الغيوم الأرضية. عادت السماء صافية وأسطح منازل الموصل واضحة، والشوارع تزينها الأعمدة والأسلاك والنخلات. لكن من دون المنارة والقبة. اختفى الجامع كأنه لم يكن موجوداً قط.

ارتفع صوتٌ من بعيد، «الله أكبر».

ـ تمت ـ

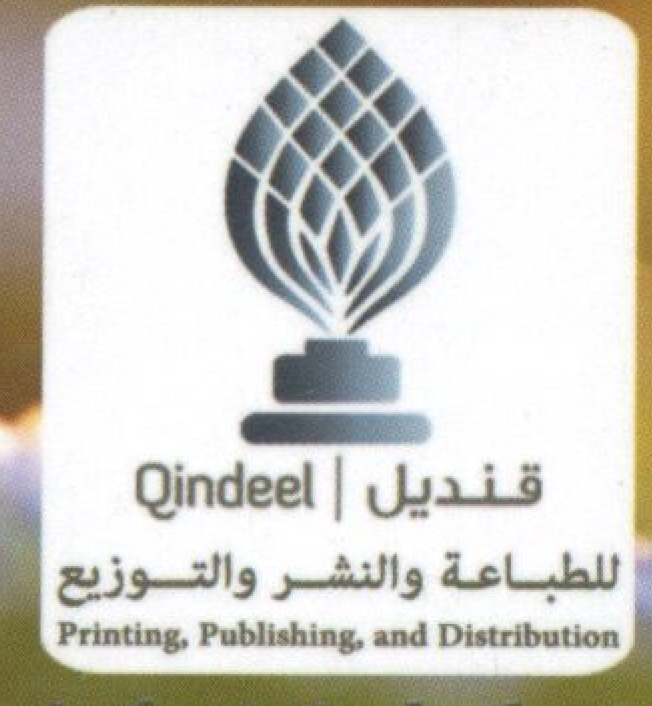
إيمان اليوسف

حارس الشمس

مهندسة كيميائية ومدربة جرافولوجي معتمدة. كاتبة إماراتية صدر لها مجموعتان قصصيتان "وجوه إنسان" و"طائر في حوض الأسماك" بالإضافة إلى رواية "النافذة التي أبصرت" ومشاركتها في "كتاب ينقذ طفلاً" واصدار تناولت فيه مناقشة أدبية لمجموعة من الكاتبات الإماراتيات بعنوان "خبز وحبر". تكتب زاوية ثقافية أسبوعية في صحيفة الرؤية الإماراتية باسم "مرآة قلم".

سرح ذهن حجي حسين منصور في حبيبات الكهرمان بين أصابعه. إنها الهدية الأثمن التي حصل عليها والتي، منذ أن أمسكها للمرة الأولى، وهو يطبق عليها بأصابعه، إطباق الغريق على خشبة الخلاص. ينشد الأمان مع كل حبة تسقط في دفء راحته، تك تك، مصدرة ذلك الصوت الذي جعله يحلف لعلاء وحجي أبو محمد، أنها ترياقه المخلص من آفة التدخين، قبل أن يعود إلى ذلك الإدمان بعد أربع سنوات طوال. ليت الأقدار تدار بهذه السهولة، أو ليتها تكون بهذا الجمال، تشع تحت الشمس وتلمع واضحة، كحبات مطر الذهب وقد جمد. أخرج حسين من جيبه علبة السجائر. ما زالت اللقمة الثقيلة عالقة في جوفه، منقوعة بالسموم التي تقيأها أبو ذا النون. فتح العلبة ليجد لفافة بيضاء وحيدة تستلقي بهدوء في جوفها، كان قد أعدها بعناية هذا الصباح. تردد قليلاً، ثم أعاد العلبة إلى جيبه بعد أن قرر أنه سيؤجل احتراقها بضع دقائق، إلى حين لقائه بعلاء. وضع يده على صدره، شاعراً بنار من أثر الدخان، وبنار أكبر لا يطفئها إلا الدخان.


ISBN 978-9948-18-889-6
9 789948 188896
ISBN 978-614-432-510-0
9 786144 325100



info@qindeel.ae
www.qindeel.ae